المكتبة الهيجلية

هيجل

حياة يسوع

ترجمة

جرجي يعقوب



١٢ هيجل حياة يسوع

حياة يسوع

يمثل كتاب « حياة يسوع » مرحلة من الطريق التي اجتازها فكر هيجل بين عام ١٧٩٠ و١٨٠٠ . فقد كتبه في العام ١٧٩٥ ، فكانت صياغته واقعة تحت التأثير المباشر لكتاب كانط عن الدين .

اهتمامات هيجل هنا خلقية وليست تاريخية . والمهمة التي انتدب نفسه لها سبق أن حددها كانط بقوله إنه يمكن اجراء التجربة التالية : لنتفحص الوحي ، بما هو مذهب تاريخي ، بطريقة مجزأة ، فلا نتناول منه سوى المفاهيم الخلقية ، ولنر إذا كان سيقودنا ، بهذه الطريقة ، إلى مذهب عقلي خالص للدين .

في « حياة يسوع » يسعى هيجل إلى أن يظهر ، بمثل عيني ، الصراع بين دين خالص ، هو مذهب يسوع ، وبين دين وضعي متحجر في شكلية صارمة ، دين خارجي تماماً ، هو الدين اليهودي ، وإلى أن يؤكد السيادة الخلقية للشخص بالنسبة إلى كل ناموس يريد أن يفرض نفسه عليه من الخارج . وهذه هي مهمة هيجل في كتابه .

دار التنوير للطباعة والنشر ص . ب : ٦٤٩٩ - ١١٣ بيروت - لبنان .

مدخل

١ ـ « دفاتر الشباب » لهيجل .

ـ أ ـ

في كـانون الثـاني من العام ١٧٩٥ كتب هيجـل الشاب ، ابّـان تعليمه احدى العائلات في مدينة برن ، إلى شيلينج ، صديقه المفضل آنـذاك : « إن ابتعـادي عن كثير من الكتب والـوقت الضيق المتاح لي ، لا يسمحـان بـانهاء الأفكار العديدة التي احملها في ذاتي . . . » ويرسل لـه شيلينج ، ذو العبقـرية المبكرة ، بعد بضعة اشهر الكتاب الذي كـان منصرفـاً إلى تأليفـه : « في الأنا كمبدأ للفلسفة » . فيشكره هيجل على كتابه ويخاطبـه بحماسـة قائـلاً له فيـما قال : « لقد أرسلت كلمتك في الزمن اللامتناهي ، بصمت . . . » .

وفي الرسالة نفسها المؤرخة في ٣٠ آب من العام ١٧٩٥ نسمعـه يشكو مجدداً من كتاباته التي يبدو أنها لا تتقدم مطلقاً : « أمّا كتاباتي فإنها لا تسـاوي تعب الحديث عنها . . . »[١] . ولكنه لا يصرف النـظر عن فكرة انجـازها ، ويـأمل أن يستـطيع يـوماً اخضـاعها لنقـد شيلينـج « السمـح » . فقـد لعب شيلينج ، وهو اصغـر من هيجل ببضـع سنوات ، دور الأخ الأكبـر ، أو قلْ دور المعلم ، بـالنسبة إلى هيجـل ذي العبقريـة المتأخـرة . ولكن وعـده يبقى وعداً ، فلا يخضـع اعمالـه لنقد صـديقه ، رغم متـابعته لهـا بسعي حثيث .

(١) هيجـل ، الأعـمـال . HEGEL, Werke, Berlin, 1832 - 1887, T.XIX, V.I, 12,23.

وذلك لسبب بسيط ، فإن تلك الأعمال لم تنجز على الاطلاق .

ومثلها كان مصير الملاحظات التي سجلها هيجل على الورق ابّان ممارسته التعليم في فرانكفورت على نهر الماين .

ولم يفكر هيجل الفيلسوف بعد ذلك في انجاز أعمال هيجل اللاهوتي ، حتى في شكلها الأولي ، ذلك أننا في صدد مؤلفات تستحق عموماً أن تُسمى لاهوتية . أما أفكار اللاهوتي ـ الفيلسوف الشاب التي كان « يحملها » في ذاته ، فقد مرت فيما بعد في مذهب المثالية المطلقة ، ولكن بعد اخفاء أصلها الديني ، إذا جاز التعبير . إن بعض هذه الأفكار قد رأى النور بالشكل الأصلي في المقتطفات التي نشرها ك . روزنكرانتس و ر . هايم[٢] ، ولكن تلك المقتطفات لا تمثل سوى جزء زهيد من المخطوطات المحفوظة في مكتبة برلين[٣] .

ثمة استمرارية حقيقية بين الأفكار التي عالجها هيجل في أعماله اللاهوتية وبين أفكاره اللاحقة ، وهو ما أظهره هايم بوضوح في دراسته عن هيجل . ولكن ، رغم دراسة هايم ، فإن الاهمال الذي لحق بالميتافيزيقا الهيجلية ، في أواسط القرن الماضي ، أدّى إلى عدم الاهتمام بكتابات الفيلسوف في شبابه ، رغم الأهمية الكبيرة التي قدمتها تلك الكتابات في مجال الاحاطة بالمذهب الهيجلي .

ولهذا السبب فإن كتابات هيجل بين العامين ١٧٩٠ و ١٨٠٠ لم تجد مَنْ ينشرها قبل مطلع القرن الحالي ، باستثناء المقتطفات اللاهوتية والسياسية التي نشرها روزنكرانتس وهايم ، وقسم من الكتابات السياسية نشره موللا .

---

(٢) روزنكرانتس ، حياة هيجل . K.ROZENKRANZ , G. W. Fr. Hegels Leben, Berlin, 1844.

هايم ، هيجل وزمانه . R. HAYM, Hegel und seine zeit, Berlin, 1857.

(٣) المعروفة سابقاً باسم « مكتبة بروسيا الملكية » .

ويعود الفضل إلى ديلتاي ، مؤرخ المثالية الالمانية الكبير ، الذي لفت انتباه العالم الفلسفي مجدداً إلى الكتابات اللاهوتية لهيجل الشاب[٤] ، بدراسته العميقة لشباب هيجل ، تلك الدراسة التي لم تنجز للأسف . كما أن السيد بول روك ، كان أول من نشر جزءاً من هذه الأعمال في العام ١٩٠٦ تحت عنوان « حياة يسوع » . أما طبعة السيد هرمان نول ، تلميذ ديلتاي ، فظهرت بعد ذلك ببضعة أسابيع ، وكانت شبه كاملة ، وحملت العنوان الأصح : « كتابات لاهوتية لهيجل الشاب » . فإذا استثنينا بعض العظات التي القاها هيجل في مدينة توبنجن ، وأربع بطاقات ، فإن طبعة السيد نول حوت كل الأعمال اللاهوتية لهيجل : « الديانة الشعبية والمسيحية » (شذرات) ؛ « حياة يسوع » ؛ « نقد المسيحية الوضعية » ؛ « روح المسيحية ومصيرها » ؛ وعدة « مخططات » لأعمال وشذرات[٥] .

---

(٤) نشرت دراسة ديلتاي أولاً في « حوليات اكاديمية برلين » (W. DILTHEY, Die Jugendgeschichte, Hegels, Abrandlungen der preussichen Akademie der wissenschaften, 1905, Berlin.) ثم نشر السيد هرمان نول عمل معلمه في كتاب مستقل سنة ١٩٢١ ، وأضاف إليه الجزء الذي لم ينجزه ديلتاي .

(٥) تحتوي طبعة روك : « حياة يسوع » ؛ الفقرات التي تحمل في طبعة نول عنوان « روح المسيحية ومصيرها » ؛ وجزءاً مما طبعته منشورات نول في ملحق بعنوان « مشاريع » .

فعندما كان السيد بول روك ينسخ المخطوطات اللاهوتية لهيجل ، كانت مجموعة في ثلاثة مجلدات تحمل الأرقام : ٧ ، ٨ و ١١ . وقد نشرت دار روك المجلد رقم ٧ (« حياة يسوع ») ؛ وفقرات المجلد رقم ١١ التي ترتبط « من دون شك » بـ « حياة يسوع » ، كما ذكر السيد روك نفسه .

وقد نشرت هذه الفقرات حسب الترتيب الموضوع لها في المجلد رقم ١١ . ولذا فإن طبعة روك لا تحتوي على الفقرات الموجودة في المجلد رقم ٨ والتي « ترتبط » بكتاب « حياة يسوع » .

ميزة طبعة نول أنها كاملة ، وأنها تتبع تصميماً مختلفاً . فهي لم تنشر المخطوطات كما تم جمعها بمحض الصدفة في مكتبة برلين . لأن نول تابع عن كثب دراسة ديلتاي ، فاضطر إلى نشر المخطوطات بحسب ترتيبها الزمني ، فأصبح بالامكان تتبع النمو الروحي لهيجل الشاب .

وهكذا فإن « روح المسيحية ومصيرها » الذي نشرته دار روك على أنه « شذرات » =

- ب -

كان تأثير تلك المنشورات كبيراً ، من وجهة نظر هيجل ـ الانسان ، ووجهة نظر هيجل ـ الفيلسوف .

فقد كان الميل كبيراً قبل ذلك إلى أن يرى في هيجل ـ الانسان تجسيماً متكلفاً لمذهب برلين ، أو نسيان هيجل ـ الانسان تماماً . وكان يُظن أن

= مرتبطة « بحياة يسوع » ، جاء بعد « نقد المسيحية الوضعية » في طبعة نول . وهذا الأخير يرتبط بدقة « بحياة يسوع » ، وقد كتب بعده مباشرة (قبل ٢ تشرين الثاني ١٧٩٥ ، انظر نول صفحة ١٣٩) ، وفيه استعمل هيجل بعض الفقرات التي سبق ذكرها في « حياة يسوع » . أما « روح المسيحية ومصيرها » فقد كتب في خريف أو شتاء ١٧٩٨ (انظر نول ص ٤٠٥) أي في الفترة التي غيّر فيها هيجل وجهة نظره . ولهذا السبب فإن عنوان « حياة يسوع » الذي جمعت فيه طبعة روك « حياة يسوع » الصحيح ، المخطوط في العام ١٧٩٥ ، إلى جانب « روح المسيحية ومصيرها » ، يبدو لي غير مبرّر .

ومن جهة أخرى فإن طبعة نول نجحت في اعادة بناء عمل هام لهيجل ، وربما أكثر كتابات الشباب أهمية . وهو بالتحديد « روح المسيحية ومصيرها » (هنا تبلغ احدى مراحل نمو فكر هيجل أوجها) . وعلى هذا النحو ، فإن المادة التي قدمتها طبعة روك بشكل فقرات ، تحمل كلها سمة روح واحدة وتعالج المشكلة نفسها ، إلاّ أنها غير متماسكة فيما بينها . أما في طبعة نول فإن تلك المادة تأخذ الشكل الموحد لعمل منظم . وحتى تصل دار نول إلى تلك النتيجة ، فصلت بعض الأجزاء ونشرتها في ملحق على أنها « مشاريع » ؛ (الصفحات العشر الأولى من « فقرات » طبعة روك ، والصفحات ١٠١ ـ ١٠٦ ، ١٦٤ ـ ١٦٩ ، ١٧٧ ـ ٢٠١) . أما باقي النص فقد تم توزيعه بشكل مختلف عن طبعة روك .

وبناء على طلب السيد نول ، اعادت مكتبة برلين جمع المخطوطات اللاهوتية لهيجل بحسب الترتيب المتبع في طبعة نول (ملاحظة دوّنها السيد نول نفسه في الصفحة ٥٧٦ من كتاب ديلتاي Die Jugendgeschichte Hegels ـ شباب هيجل ـ المطبوع سنة ١٩٢١) .

يضاف إلى كل ذلك أن طبعة نول احتوت أيضاً على الأعمال السياسية التي كتبها هيجل بين سنتي ١٧٩٠ ـ ١٨٠٠ ، والتي لم تكن قد نشرت قبلاً .

بالامكان فهم أفكار هيجل ـ الفيلسوف دون أخذ الحياة الروحية الحميمة لهيجل ـ الانسان بعين الاعتبار .

والحال ، أن كتابات الشباب هذه تبرز هيجلاً تزخر فيه حياة داخلية غاية في الغنى . ويتملكه شعور قوي بتماثل كلي جذري لسائر أشكال الوجود ، وشعور بوحدة الحياة ، الحياة الكلية في الكون ، ويقض مضجعه قلق ديني ازاء سائر التناقضات التي خلقتها الحياة والعقل في مجرى الكائن الواحد الحيّ ، وتملأ نفسه رغبة حارة في مصالحة سائر التناقضات ، ويلازمه الحنين الصوفي إلى الوحدة الكاملة مع الكل .

ومعلوم أن العنصر العقلي ، القوي ، قد جاء وكأنه طعم للعنصر الانفعالي الصوفي . ويمكن القول إن مذهب هيجل اللاحق ليس سوى التعبير العقلاني ، وبشكل ما اللاشخصي ، عن الحياة الصوفية التي عاشها هيجل الشاب ، تلك الحياة الشخصية إلى أبعد الحدود . وسنلاحظ فيما بعد أن المذهب المبني بواسطة المنهج الجدلي هو الراسب العقلي للتجربة الدينية التي عاشها هيجل بين عامي ١٧٩٠ ـ ١٨٠٠ .

كانت الرغبة في الاتحاد الكامل بالكل من الحرارة بحيث أن هيجل كاد ، لفترة ما ، في احدى منعطفات مسيرته ، يلتزم نهائياً الطريق التي رسمها له المعلم ايكارت ويعقوب بوهمه . وعلى هذا النحو فإنه كان سيمسي تلميذاً عبقرياً لكبار الصوفيين الالمان ومتمماً لهم . ولكن عقلانيته وولعه بالتاريخ واهتمامه الحاد بتفاصيل الأشياء قاومت ، فسار فكره في طريق أخرى .

يرى السيد اميل براهييه أن « قلق » النفس التي تحس أنها غريبة بازاء الموضوعات الخارجية ، ذلك « القلق » الذي تحدث عنه هيجل في كتابه فينومينولوجيا الروح ، هو « الحافز الخفي » لفكر هيجل[٦] . ولا بد أن يشعر

(٦) تاريخ الفلسفة الالمانية (أ . برهييه) ، باريس ١٩٢١ ، ص ١٢٠ .

كل مَنْ يقرأ مؤلفات هيجل بأن هذا التوتر الروحي أكبر وأشد حساسية في كتاباته اللاهوتية .

وهكذا فإن نشر تلك الكتابات الحميمة ، الأمر الذي يرجح أن هيجل كان يعتبره عملاً رجساً ، يكشف لنا هيجلاً غاية في الانسانية ، فيبدو اقرب إلى القلب من الأستاذ البرليني ، الذي سيكونه فيما بعد .

ولكن رغم ذلك ، فإذا كان بالامكان اعتبار نشر تلك الأعمال تفريطاً بالأمانة نحو هيجل ـ الانسان ، فإنها ليست كذلك نحو هيجل ـ الفيلسوف . لأن كتابات الشباب هذه توصلنا إلى فهم أفضل للفلسفة الهيجلية . فإننا نلتقط منها في الواقع ولادة عدد من الأفكار التي ستمر بعد ذلك في مذهب هيجل . ويمكن القول هنا ، مع السيد براهييه ، أن هيجل لم يفعل شيئاً آخر سوى اعطاء تلك الأفكار شكلاً أكثر عقلانية[٧] .

ولكن يمكن القول في الوقت نفسه ، أنه بفضل اكتشاف هذا الهيجل ، الأكثر انسانية والأقل تجريداً ، تتلون المعاني الهيجلية ، المنفرة للوهلة الأولى والقاسية ظاهرياً ، ببعض الانفعالية وتمتلىء بالعاطفة . وإذا كانت معانيها العقلانية لا تتغير أبداً ، فإنها تأخذ إلى حد ما بعض الصلابة . وهذا الأمر هام جداً من أجل فهم فلسفة تحمّلت تفسيرات متنوعة جداً ومختلفة جداً ، وحتى متناقضة .

- ج -

ربما كان مفيداً أن نتذكر هنا أن هيجل أراد أن يكون قساً ، تابعاً بذلك نذر أهله ومدفوعاً ، على الأرجح ، بميله إلى النشاط العملي . وقد انتهت دراساته اللاهوتية في جامعة توبنجن سنة ١٧٩٣ ، ولكن اهتمامه بقي محصوراً بالمسائل اللاهوتية حتى سنة ١٨٠٠ ، بسبب « الميل اليها » على حد

(٧) نفسه ص ١١٩ .

(٨) اطلق عليها هـ . تين اسم « تجريدات مرعبة » ,Philosophie Classique p. 143)
12 ᵉ édition)

تعبيره ، وبسبب علاقتها الحميمة « بالأدب الكلاسيكي والفلسفة »[٩] . والأعمال التي نشرها السيدان روك ونول هي خلاصة هذه الاهتمامات .

إلا أنه من غير الممكن وصف تلك الأعمال باللاهوتية إلاّ بالمعنى الواسع جداً لهذه الكلمة ، لأنه حتى هنا ، أي حيث يحتك هيجل بمشاكل اللاهوت ، فإنه لا ينظر إليها بصفته لاهوتياً . وإذا كان موضوع البحث لاهوتياً تماماً في بعض الأحيان ، فإن الفكر المركّز عليه ليس فكراً لاهوتياً . وبشكل عام ، فإن ما يستولي على فكر هيجل الشاب ليس المشكلات اللاهوتية بحد ذاتها ، ولا مسائل العقيدة ـ المسيحية أو غير المسيحية ـ بل إن الفيلسوف والمؤرخ هو الذي يخوض في مسائل الفلسفة العملية وعلم الاجتماع والتاريخ والسياسة ، بوجهة نظره الخاصة ومع حرية فكرية منفلتة من أي قيد عقائدي . وبهذا التحديد فإن هيجل يجب ألا يُعَدّ لاهوتياً أكثر من نيتشه مثلاً .

كان هدفه ذا طبيعة عملية تماماً . فهيجل الشاب ، كما هيجل في كل مراحله ، يريد أن يكون مصلحاً . ويفكر في تأسيس ديانة شعبية تقوم مقام المسيحية الوضعية التي يعتقد أنها دين سلطة وعقيدة ، وأنها يجب أن تعود إلى مبدأها الأصلي ، أي المبدأ الخلقي . كان يحلم بدين يرضي متطلبات العقل والعاطفة في آن معاً ، دين خالق لحضارة أكثر تناغماً وأكثر غنىً .

ولكن حتى يكون البناء ممكناً يجب تمهيد الأرض أولاً . لذلك كان على هيجل أن يشرع بالضرورة في تفحص المسيحية ونقدها . ولكن هذا الأسلوب جعل المشكلة التي كانت عملية تماماً في البداية تتغير شيئاً فشيئاً ، ثم تتسع ، حتى صارت مسألة تاريخية . إنها فرادة فكر هيجل الشاب في نقل المشاكل الميتافيزيقية بالنسبة إلى كانط وشيلينج ، إلى أرض تاريخية تماماً . ولكن المسألة التاريخية تحولت بدورها إلى مسألة في الفلسفة الخالصة ،

(٩) من « مراحل السيرة » (Curriculum vitae) التي كتبها هيجل نفسه في أيلول ١٨٠٤ ، ونشرها نول (op. cit., pp. 8 - 9) .

وبالتحديد إلى مسألة في الفلسفة الصوفية وفي الحلولية . وهذه ستكون نهاية الطريق الطويل الذي اجتازه فكر هيجل بعد اجهاد كبير .

والتعمق في هذا الطريق أوصل هيجل إلى أكبر اكتشافاته الفلسفية ، تلك الاكتشافات التي ستتألف منها فيما بعد أحجار الزاوية لمذهبه .

ولكن انتقال المشكلة وتوسيعها أدّيا إلى تغيير المثل الأعلى أيضاً . فالمثل الأعلى العملي الكامن في تأسيس « ديانة شعبية » ، وهو ما تابعه هيجل في البداية ، يتراجع إلى الموقع الخلفي من فكره مخلياً المكان لمثل أعلى نظري . فيبحث هيجل بعد ذلك عن حل نظري لما اعتقد أنه قد اكتشفه من تعارضات وتمزقات بين الأشكال المتنوعة للوجود ، وهي محاولة تظهر فيها تدريجاً نزعته الصوفية - الحلولية . أما فكرة « الديانة الشعبية » التي أراد بواسطتها حلّ الصراع ، الذي اعتقد أنه قد اكتشفه ، بين الدين الوضعي والحياة الداخلية للفرد ، فستعطي مكانها لفكرة « الحياة » . وهي فكرة أوسع ، لأنها تتسع تقريباً للكائن كله ، وإن كانت أكثر تجريداً من الأولى .

إن النقد الشديد والجريء للمسيحية الوضعية ، وهو نقد ضروري ، يشكل الهدف الذي سعى إليه هيجل . وهذا هو الموضوع الأساسي لأعماله « اللاهوتية » . ولكن فكر هيجل يذيّل هذا الموضوع بأفكار أخرى ، ربما كانت أهم من الموضوع الذي تنتظم حوله . ولكن كما سبق أن قلت ، فهذا النقد لم يقم به هيجل اللاهوتي بل هيجل الفيلسوف المشرب في البداية بأفكار « حركة التنوير » (ليسينج - هردر) وأفكار كانط . وبعد عده سنوات ومع توسيع المسألة ، فإن الذي يقوم بالنقد هو هيجل المؤرخ ، أو بالأحرى هيجل المؤرخ - الفيلسوف . وفي عامي ١٧٩٨ و ١٧٩٩ نرى مجدداً هيجل الفيلسوف ، ولكنه هذه المرة فيلسوف لا كانطي ، وابن روحي لتاولر وليعقوب بوهمه .

أما كتاب « حياة يسوع » الذي اقدّم الآن ترجمته فيشكل مرحلة من الطريق التي قطعها الفكر الهيجلي بين عامي ١٧٩٠ - ١٨٠٠ ؛ إنها المرحلة الكانطية الخالصة .

٢ - تأثيرات ونزعات .

قد يكون مفيداً ، قبل الحديث عن كتاب هيجل ، أن نحاول ابراز النزعات العميقة لروح مؤلفه ، والتي ظهرت في كتابات الشباب . فقد تساعد هذه المحاولة في توضيح أفضل لمعنى كتاب « حياة يسوع » ، وفي تحديد مكانته بين كتابات هيجل اللاهوتية ، وتكون في الوقت نفسه فرصة مؤاتية للتشديد مجدداً على الأصل الديني والصوفي للنظرة الهيجلية ، الأمر الذي سيجعل تلك النظرة ، المتمرسة في البداية على مادة مزوّدة بالتاريخ الديني ، تصبح ذات أهمية قصوى من أجل فهم المعنى العام لمذهب هيجل اللاحق .

إلا أنه من غير الممكن استخراج النزعات ، أو بعبارة أخرى ردود الفعل الشخصية لروح هيجل الشاب ، دون أن نأخذ بعين الاعتبار ، وفي الوقت نفسه ، بعض التأثيرات الأساسية التي خضع لها .

- أ -

إن البيئة المباشرة التي خضع فيها فكر هيجل الشاب لتأثيرات كبيرة قد وصفها بطريقة مفصلة كل من روزنكرانتس وهايم وكونو فيشر والسيد بول روك[١٠] . وهذه بعض احداثها .

---

(١٠) ROSENKRANZ, op. cit.; HAYM, op. cit.; KUNO FISCHER, Bes-=

ذكر هايم أن كليات ساكس وفيرتمبرغ كانت في القرن الثامن عشر تدرّس الآداب القديمة دراسة جدية . فتجري فيها دراسات متتابعة للغة اليونانية . وكان الطالب الشاب المنتسب إلى هذه الكليات يترجم أكثر من مرة مسرحية « آنتيجون » وكتاب ابيكتيت ودرس لونجينوس عن « الجماليات » . وكانت الوظائف المدرسية تتخذ موضوعاتها كلها من التاريخ القديم .

وفي هذا الجو دخل هيجل جامعة توبنجن وصار الصديق الحميم لهولدرلين .

ومعلوم أن هولدرلين كان يكنّ اعجاباً حماسياً لليونان . والفكرة الوحيدة التي كوّنها عن اليونانيين القدماء أنهم شعب بطولي وخالد الشباب ، وأنهم الشعب الوحيد الذي عرف كيف ينمي سائر ملكاته الخلقية والجسدية بطريقة منسجمة ، والشعب الوحيد الذي عرف كيف يخلق حياة جميلة حقاً[11] .

وترسّخ الاعجاب الذي كان هيجل يشعر به تجاه اليونان القديمة ، بسبب احتكاكه مع هولدرلين ، فصار اعمق من السابق . وبعث فيه هذا الاحتكاك اليونانَ القديمة كما تصورها ، خطأ أو صواباً . فقد كانت الحرية السياسية في المدن اليونانية تستوقف انتباهه دائماً ، فيرى فيها أساس الانسانية السامية التي تنامت في تلك المدن .

وكما سنرى فيما بعد ، فإن هيجل أبدى رأيه في المسيحية من خلال الفكرة التي كوّنها عن اليونان . وفي نهاية المطاف ، فإن اليونان القديمة هي

= chichte der neuren Philosophie(تاريخ الفلسفة الحديثة), Heidelberg,1901, T. VIII, partie 1; PAUL ROQUES, HEGEL, sa vie et son œuvre, (هيجل ، حياته واعماله), Paris, 1912.

(١١) شارل اندلر ، « السابقون لنيتشه » ص ٦٨ .

التي أوحت إليه بالرغبة في مستقبل أفضل لشعبه ، وبفكرة « الديانة الشعبية » .

خضع هيجل في جامعة توبنجن لتأثير « حركة التنوير » الذي لم يملأ كلية الفلسفة وحسب بل كلية اللاهوت أيضاً . وكان شتور ، الذي نقد « بطريقة منصفة »[12] كتاب كانط عن الدين ، أستاذ هيجل في كلية توبنجن اللاهوتية .

وقد لاحظ هايم أن شتور كان مؤمناً « بحسب الكتاب المقدس » أكثر من كونه مؤمناً « بحسب الكنيسة » . وهذا ما ينسجم تماماً مع روح « حركة التنوير »[13] .

---

(١٢) كانط ، « الدين في حدود العقل » ، مقدمة الطبعة الثانية ، ١٧٩٤ ، ص ١٥ . (انظر مؤلفات كانط الكاملة التي نشرها روزنكرانتس في ليبزغ ١٨٣٨) .

(١٣) بذل لاهوتيو جامعة توبنجن ، وعلى رأسهم شتور ، جهوداً كبيرة من أجل التوفيق بين الايمان والعقل كما عرفته « حركة التنوير » (DILTHEY, op. cit. 10 - 11) . وقد تابع هيجل في النصف الأول من اقامته في توبنجن ـ وقد بقي فيها خمس سنوات ـ قراءة المؤلفين الذين كان يفضلهم في مرحلة دراسته الثانوية وهم : كلوبستوك ، فيلاند ، ليسينج ، هردر وجميع مؤلفي « حركة التنوير » . ولعل قراءاته لليسينج كانت الأكثر ، لأنه غالباً ما يستشهد به في أعماله اللاهوتية ، وحتى في الفترة التي استأثر فيها كانط باهتمامه كلياً ، أي في العام ١٧٩٥ ، عندما كتب « حياة يسوع » .

تناول هيجل في احدى كتاباته في ذلك الوقت مسألة : « هل يمكن القول بواجبات ملزمة حتماً دون التسليم بخلود النفس ؟ » فأجاب وفق مفاهيم فولف تماماً : « ثمة خلقية طبيعية ، إلاّ أن الدين لا يستطيع أن يسيء إليها ، بل يفيدها » . (K.. FISCHER, op. cit. p. 11) .

قرأ هيجل كتاب كانط عن الدين في العام ١٧٩٤ . أمّا « نقد العقل الخالص » فقرأه في العام ١٧٨٩ . وفي تلك السنة نفسها بدأ شيلر عمله كأستاذ في جامعة يينا ، وكان مشبعاً بالأفكار الكانطية حول فلسفة التاريخ (K. FISCHER, op. cit., p. 11,25) . وقد أشار لاسون إلى تأثير شيلر على فكر هيجل الشاب (INTRODICTION à la phénoménologie de Hegel, édition du centenaire, p. XXXIX) .

يضاف إلى هذين التأثيرين تأثير آخر عظيم جداً : إنه كانط . فعندما ترك هيجل جامعة توبنجن كان اعجابه بكانط من غير حدود . وكان يقرأ له باستمرار . وليس علينا سوى تصفح رسائله حتى نقتنع بذلك التأثير .

ففي رسالته الأولى إلى شيلينج ، التي يتحدث فيها عن نقد شتور لكتاب كانط عن الدين ، قال إن هذا الكتاب سيُنقَد كثيراً بلا شك ولكن « تأثيره ، الذي لا يزال حتى اللحظة مستتراً ، سيرى النور مع الوقت » .

ونذكر أيضاً تأثير صديقه شيلينج الباكر النضوج ، ذلك التأثير الذي يصعب تحديده[١٤] ، ولكنه كان عظيماً . ففي تلك الفترة لعب شيلينج بالنسبة إلى هيجل دور المحرّك الكبير[١٥] . وكان تأثير كتب فيخته وشخصيته كبيراً أيضاً[١٦] .

ولكن يجب ألاّ ننسى هنا ، أنه بين الأمور الكثيرة التي أثرت بشدة على مخيلة هيجل الشاب ، كان ثمة تأثير لا تمكن معرفته من الكتب ، تأثير لم يكن بحاجة إلى اعادة تشكيله في مخيلته ، كما هي الحال بالنسبة إلى اليونان القديمة ، بل تنشقه مع الهواء الذي كان يتنفسه : إنه الثورة الفرنسية . فقد تسرّبت اصداؤها الصاخبة من خلال الجدران السميكة للمدرسة الداخلية في توبنجن ، وحتى إلى داخل قاعات المحاضرات نفسها . فرحب بها الأصدقاء الثلاثة : هيجل ، شيلينج وهولدرلين بحماسة ، كما رحب بها عند اندلاعها عالم الفكر في المانيا كلها . وقد حملت المذكرات الخاصة التي كان هيجل يدوّنها في ذلك الوقت هتافات من نوع : « فلتعشْ الحرية ! » و « فليعشْ جان ـ جاك ! » (باللغة الفرنسية)[١٧] .

(١٤) ديلتاي ، « شباب هيجل » . W. DILTHEY, Die jugendgeschichte Hegels, p. 60, Sqq.

(١٥) هيجل ، الأعمال . HEGEL, Werke, T.XIX, Vol 1, passim.

(١٦) W. DILTHEY, op. cit., 53 Sqq.

(١٧) روى كاتبو سيرة هيجل أن طلاب جامعة توبنجن أسسوا نادياً سياسياً كانوا يناقشون =

التجربة العظيمة التي كان الفرنسيون يسعون إليها في الجانب الآخر من نهر الراين ، من اجل بناء مجتمع انساني جديد على مبادىء عقلية ، لا يمكن إلاّ أن تملأ روح هيجل وأصدقاءه الشباب بالأمل في مستقبل أفضل ، فهم أيضاً أبناء ذلك القرن الثامن عشر المؤمن بالعقل والحرية والفضيلة ، و « بحركة التنوير » التي ربما كان ليسينج أصدق تعبير عنها . والغد الأفضل الذي انتظروه ، إنما كانوا ينتظرونه للبشر كلهم : « يبدو لي أن اهتمامه بالأفكار العالمية يتزايد باستمرار . فليأتِ ملكوت الله ، ولن يجدنا مكتوفي الأيدي ! » هذا ما كتبه هيجل لصديقه شيلينج في العام ١٧٩٥ متحدثاً عن هولدرلين[١٨] . لقد آمن هيجل الشاب بقوة ، كما هيجل دائماً ، بارتقاء الانسانية وبمستقبل أفضل لها . وكان ينتظر في ذلك الوقت أن يتولى سلطان العقل هذا التغيير .

تتضح روح الاصلاح الكامنة في الثورة الفرنسية من خلال مخطط هيجل الشاب لتأسيس ديانة شعبية . وهذه الروح تظهر أيضاً في كتابات أخرى لهيجل (دراسة حول دستور المانيا) ، ولكنه في العامين ١٧٩٤ ـ ١٧٩٥ كان يتصور تحقيق ذلك الاصلاح العظيم بواسطة مشروع اجتماعي ـ ديني . من المؤكد أن افتتانه باليونان ، كما تصورها هو ، أثّر على مشروعه كثيراً . فاليونان هي التي أمدّته بالمثل الأعلى لديانة شعبية عظيمة ، ديانة مولودة على أرض الوطن ، فتكون تعبيراً كاملاً لحياة شعب . أما نجاح الثورة الفرنسية فأمدّه بالثقة في امكانية تحقيق مشروعه .

اعتقد هيجل أن الدين ، كما تصوره ، كان حقيقة . وإذن فهو ليس اختلاقاً مخادعاً من المخيلة ، والبرهان هو اليونان . كما أن العقل جدير بتغيير وجه الأشياء الانسانية ، والبرهان هو فرنسا . فلماذا لا تكون الديانة الشعبية

= فيه احداث الساعة ، وقد زرعوا شجرة سموها شجرة الحرية . وكان هيجل وشيلينج من المجموعة .

(١٨) HEGEL, Werke, XIX, Vol 1, p. 13.

مثلاً أعلى يسعى إلى تحقيقه ؟ وذلك بصورة حتمية ، لأن هيجل ، على غرار كانط ، يؤمن أن الأخلاقية لا يمكن أن تتحقق بطريقة مستمرة وكاملة في أفراد منفصلين . إنها على هذا الشكل كانت واقعاً هنا أو هناك ، ولكنها لم تدم . لذلك اعتقد هيجل أنها يجب أن تتحقق في مجتمع بكامله .

ومجمل القول ، أن الينابيع التي وجدت فيها روح هيجل غذاءها ابّان تلك المرحلة من نموه ، هي دراسته المكثفة لليونانية واللاتينية ، والدراسات اللاهوتية ، التي جرت بفكر منفتح إلى أبعد الحدود ، و « حركة التنوير » ، وكانط ، والثورة الفرنسية التي اعطت السمة الأساسية لروح ذلك العصر ، وصورة مغرية لانسانية يراها هيجل سعيدة وسامية كما كانت معاشة في اليونان .

- ب -

أما الآن فلا بد من الحديث عن بعض النزعات العميقة لروحه[19] .

فأول ما يلفت النظر في هيجل الشاب ، رغبته العظيمة في معرفة العالم الخارجي ، وعطشه الدائم إلى الوقائع ، ومحبته لتفاصيل الأمور ، والعمل المستمر الذي أكبَّ عليه من أجل اغناء معارفه ، وقدرته العظيمة على الاستيعاب .

لقد تحدث جميع الذين كتبوا سيرة هيجل ، بدءاً بروزنكرانتس حتى ديلتاي والسيد روك ، عن الكمية الكبيرة من الملاحظات، التي دوّنها هيجل ابّان دراسته الثانوية ثم الجامعية فيما بعد[20] .

إن اهتمام هيجل بالوقائع ، وفضوله الكليّ هما من سمات الفكر التي تقربه من ارسطو . ولهذا السبب ، فإن هايم ، ومن بعده تين ، شبهاه بالفيلسوف اليوناني[21] . وقد بقيت هذه السمات فيه دائماً . ولاحظها السيد

(١٩) انظر صفحة (١٥) من هذا الكتاب .

(٢٠) ب . روك ، « هيجل : حياته ومؤلفاته » . ص ٢٢ ، ٣٩ .

(٢١) تين ، « الفلاسفة الكلاسيكيون » ، الطبعة الثانية عشرة ، ص ١٣٣ .

اندلر أيضاً : « إن مذهبهُ (هيجل) يشتمل على مقدار هائل من الوقائع الوضعية ، وهذا ما ينطبق على الجزء الاقتصادي بمقدار ما ينطبق على سواه . . . »[22] . وقد نوّه أوبرفغ بهذه السمة أيضاً[23] .

وإنني اختار بعض الأمثلة من أجل التوضيح . ففي برن (١٧٩٣ - ١٧٩٦) ، وبعد دراسة هيجل للوضع المالي السائد في المدينة ، كتب عملاً حول الموضوع . ويذكر كاتبو سيرته أنه كتب في موضوع « تحوّل علم الحرب ، المشروط بالانتقال من الملكية إلى الجمهورية » . ورغم أن مركز اهتماماته يبقى الدراسات اللاهوتية ، إلاّ أنه في المرحلة التي كتب فيها « روح المسيحية ومصيرها » كان يتابع في الصحف البريطانية المباحثات البرلمانية ، ويدرس اصلاح الأراضي البروسية ويكتب نقداً لنظرية جيمس ستيوارت في الاقتصاد السياسي[24] .

ولكنه لم ينكب على عصره وحده . فالتاريخ أيضاً كان في المقام الأول من اهتماماته ، ومنذ وقت مبكر . ويظهر في يومياته (١٧٨٥ - ١٧٨٧) التي كان يكتب معظمها باللاتينية ، أن الزوايا الأبرز كانت تلك التي يصارع فيها للوصول إلى فهم فلسفي للتاريخ[25] .

لم يكف هايم وديلتاي وروك عن الاشارة إلى الاتجاه التاريخي الحاد عند هيجل . فالمشاكل الدينية والميتافيزيقية تتحول بين يديه إلى مشاكل في التاريخ . وقد حفظ هذا الاهتمام بالتاريخ طوال حياته . أوليس فكره ، في النهاية ، عبارة عن جهد عظيم ومستمر للوصول إلى فهم للتاريخ ؟ أوليس الجزء الأساسي من مذهبه ، أي فكرة النشوء ، من وحي التاريخ ؟ صحيح

(٢٢) ش . اندلر ، « أصول اشتراكية الدولة في المانيا » ، ص ١٤٤ .

(٢٣) اوبرفغ ، « أصول تاريخ الفلسفة الحديثة » ، طبعة ١٩٢٣ ، الجزء الرابع ، ص ٨٧ .

(٢٤) ذكر ديلتاي أن قراءات هيجل في تلك الفترة كانت لمونتسكيو وجيبون وهيوم وشيلر .

(٢٥) K. FISCHER, op. cit., 7.

أنه حاول بواسطة مذهبه تنظيم المادة ، المتهافتة للوهلة الأولى ، التي يقدمها له التاريخ ، ولكن في العمق فإن تلك المادة هي التي أوحت إليه ، تحت شكل فرضية تحتاج إلى اثبات ، أن مذهبه مهمة يجب انجازها . أوليس هو الذي جعل الفلسفة تصبح تاريخية ، وعلّمها ، إذا جاز التعبير ، أن ثمة حقيقة تاريخية يجب العمل على فهمها ، أي حقيقة تاريخية مهمة مثل الحقيقة المادية ، ولكنها أقرب إلى العقل الانساني ؟[٢٦] .

إن تمرس فكر هيجل الشاب بالمادة التاريخية أولاً ، كان هاماً إلى أقصى الحدود بالنسبة إلى مذهب هيجل الفيلسوف . وهذا الاتجاه في الفكر الهيجلي لا يُعزى إلى الصدفة المحضة ، بل يتوافق مع ميل عميق في روحه . وقد شدد ديلتاي على هذا الاتجاه ، وكان محقاً تماماً في ذلك .

المشكلة التي طرحها هيجل هي علاقة معطيات النقد الكانطي بالدين ، كما حمله إلينا التطور التاريخي ، أي بالدين الوضعي . وهكذا تساءل : ما هو مصدر العنصر الوضعي في الدين المسيحي ؟ وهذه هي المشكلة التي سعى إلى حلها في كتابه « نقد المسيحية الوضعية » . والحال أن تلك المسألة ، التي كان ممكناً أن تُعالَج بطريقة فلسفية محضة ، تحوّلت بين يدي هيجل إلى مسألة في التاريخ . فقد وصف لنا البيئة اليهودية التي نشأ فيها الدين الجديد ، وسعى إلى فهم ظهور المسيح تبعاً لتلك البيئة . فالمسيح يمثل رد فعل بالنسبة إلى روح تلك البيئة ، وتمرداً من الطبيعة البشرية ، الحرة

(٢٦) حول هذه النقطة ، يظهر أن اوبرفغ قدّر بحق الاسهام الشخصي لهيجل (الفيلسوف فيما بعد) في تطور الفكر الانساني ، بقوله إن القيمة الكبرى لهيجل تكمن في كونه قد جعل من الحقيقة التاريخية بمجملها موضوعاً للفلسفة . وبالتالي ، فإننا إذا تناولنا تاريخ الفلسفة بهذا المنظار نجد أن جدّة المذهب الهيجلي مذهلة . فديكارت واسبينوزا وليبنيتز وهيوم كانوا فلاسفة لا تاريخيين . انظر أيضاً : بنديتو كروتشه ، « ما هو حي وما هو ميت في فلسفة هيجل » ، ترجمة بوريو ، باريس ١٩١٠ ، ص ٥٦ ، ١٤٥ وما يليها . وانظر أيضاً « منطق » المؤلف نفسه ، « المنطق كعلم المفهوم الخالص » ، الطبعة الرابعة ، باري ١٩٢٠ ، ص ٣٦٩ - ٣٧٠ .

في جوهرها ، ضد الشكلية الصارمة للثيوقراطية اليهودية[٢٧] .

بحث هيجل في تلك البيئة عن العناصر التي ضغطت على دين المسيح فجعلته وضعياً بالضرورة . وحاول من جهة أخرى تبيّن العوامل النفسية المستترة ، كالبذور ، في تعليم المسيح نفسه ، والتي أدّت إلى تحول دينه إلى دين وضعي . ولكن هيجل لم يبق هنا ، بل وسّع المسألة ، ودائماً كمؤرخ : تغيير البيئة بتشتت الأمّة اليهودية ، صيرورة الدين المسيحي دين الدولة في امبراطورية عظيمة . . . الخ . فعلى هذا النحو كان فكر هيجل الشاب يعمل في العام ١٧٩٥ ! وهكذا نرى أننا نواجه مؤرخاً ـ فيلسوفاً أكثر مما نواجه فيلسوفاً بالمعنى الخالص .

وقد ضوعف هذا الميل العميق إلى مواجهة المسائل تاريخياً بميل آخر أوجد سمة سيطرة بدورها على روح هيجل الشاب مثل سيطرة اهتمامه الحاد بالتاريخ عليها . إنه احساسه الديني العميق والحنين الصوفي اللذان تحدثت عنهما سابقاً .

يبدأ كل شعور ديني ، على الأرجح ، في الاحساس بالتناقض الموجود بين حياة الفرد المحدودة وحياة الكون اللامتناهية ، وفي احساس الانسان برغبة حارة ومؤلمة في إزالة هذا التناقض وردم تلك الهوّة . وقد احس هيجل الشاب بذلك التناقض مع قلق ، وتجلّى في شعوره كنوع من التمزق المضني ، فصارت الحاجة إلى اتحاد كامل وحيّ مع **الكل** تحز في نفسه كل لحظة . فكل تناقض يسبب له ألماً . لذا أراد هيجل أن يصالح كل الأمور بواسطة مفهومين ، هما فكرة « الحياة » وفكرة « الحب » . وقد لعب هذان المفهومان دوراً أساسياً في كتابات الشباب .

وبهذا المنظار ، فإن أكثر ما يعبر عن تلك النزعة هي الأفكار الرئيسية « لمشاريعه » غير المنجزة : « أخلاقية ، حب ، دين » ؛ « حب ودين » ؛

(٢٧) هيجل ، « الأعمال اللاهوتية » ، طبعة نول ، ص ١٤٨ - ١٤٩ .

« الحب »(٢٨) . ومن جهة أخرى فإننا نرى في الشذرات التي نشرها نول بعنوان : « روح المسيحية ومصيرها » ، أن المقولة الأسمى بالنسبة إلى هيجل هي الحياة .

وبواسطة هذين المفهومين للحياة والحب عارض هيجل « حركة التنوير » وكانط وتجاوزهما . وبالاستناد إلى المفهومين نفسيهما نقد بخشونة الديانة اليهودية ، والمسيحية التي تحدّرت منها .

ويمكن القول إن تلك الحاجة الملحة إلى جمع الكل في وحدة حية ومنسجمة ، والميل الروحي عند هيجل إلى مصالحة كل المظاهر المتناقضة في حياته الداخلية الخاصة أولاً وفي الواقع الخارجي تالياً ، هما اللذان خلقا تركيب المواد المختلفة عن المادة التي تنزع اليها روحه ، فاندفع إلى جمعها بهمة تشبه همة النحلة . وهكذا فإن هيجل المفكر الصوفي هو الذي أضفى ، بردة فعل أصيلة من روحه ، صبغة فريدة على كل ما درسه هيجل المشغوف بالواقع ، والملتصق بالحقيقة الخارجية .

- ج -

بعد الاشارة إلى السمتين البارزتين لروح هيجل الشاب ، فلنر عن قرب الطريقة الخاصة التي تلقى بها تأثير البيئة الايديولوجية والأخلاقية التي اشرت باختصار إلى أهم عناصرها في القسم الأول من هذا الفصل .

ونبدأ « بحركة التنوير » . فهي بالتمييز القاطع الذي انشأته بين دين داخلي تماماً ودين تاريخي تحقق في المسيحية الوضعية ، تحت اسمي « الدين العقلي » و« الدين الوضعي » ، جاءت لتدعم وتعمق الشعور بالتنافر الذي كانت روح هيجل الشاب الدينية تحس به بعمق بين هذه الوقائع نفسها .

إننا نعلم أن ليسينج كان يجب التمييز بين العنصر الأزلي والعنصر

(٢٨) نفسه ، ص ٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

التاريخي لكل دين(٢٩) . وقد تبنى هيجل الشاب فكرة ليسينج بأن الحقائق الأزلية لا يمكن أن تثبت بواسطة تقاليد تاريخية ، وجعلها فكرته دائماً .

واحد البنود الهامة لعقيدة هيجل الفلسفية سيكون ، فيما بعد ، القناعة الراسخة بأن الحقائق الأزلية يجب أن تؤسس على العقل وحده ، وأن تُستنتج من جوهره(٣٠) . ولهذا السبب لم يعلق أية أهمية على المعجزات ، فقدم لنا « حياة يسوع » من غير معجزات . وكتب : « المعجزة هي الخلق « من العدم » ، ولا توجد فكرة أقل منها توافقاً مع الألوهة » . إلاّ أن عنده سبباً آخر وأقوى لحذف المعجزات . وهذا الدافع أملته عليه النزعة الصوفية لفكره ، ولذلك قال : « المعجزة تمثل ما هو أبعد ما يكون عن الألوهة لأنها ما هو أبعد ما يكون عن الطبيعة ؛ ولأنها تؤكد ، بعنفها المخيف ، أقسى التنافر بين الروح والجسد . العمل الالهي هو تجديد الوحدة وإعادة تكوينها ، أمّا المعجزة فهي أقصى التمزق »(٣١)

ولكن هيجل الذي يقبل تمييز « حركة التنوير » بين الدين العقلي أو الخلقي ، وبين الدين الوضعي ، لا يؤمن أن الدين يمكن أن يكون مسألة خاضعة للاستدلال النظري . فقد ردد دائماً أن الدين من شأن القلب ، وأن استفادته من الذهن محدودة ، لأن وسائل الذهن تبدّد القلب أكثر مما تؤججه(٣٢) .

وهكذا نرى أن هيجل عارض « حركة التنوير » رغم تأثره بها . وفي احدى شذراته وعنوانها « حركة التنوير ورغبة التأثير بواسطة الفهم » نراه يوسع هذه الفكرة الغريبة تماماً عن روح « حركة التنوير » فيقول إن الفهم ،

(٢٩) W. DILTHEY, op. cit., p. 24.

(٣٠) هيجل ، « الأعمال اللاهوتية » ، طبعة نول (نقد المسيحية الوضعية) ، ص ١٦١ .

(٣١) هيجل ، « الأعمال اللاهوتية » ، طبعة نول (روح المسيحية) ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٣٢) هيجل ، « الأعمال اللاهوتية » ، طبعة نول (الديانة الشعبية والمسيحية) ص ٥ ، ٩ و ١٤ ؛ ١٠ .

كـانط عن الدين ، حتى أن أثـر ذلك الكتـاب عليه كـان عظيـماً . فـالمسـألـة الأساسية التي تهمه مسألة خلقية . ولكنه ، بخلاف كانط ، يعالجها تاريخياً . فيجسِّم ـ إذا جاز التعبير ـ المعطيات الأساسية لفلسفة كانط الـدينية والتجـربة الداخلية التي كانت روحه الخـاصة مسـرحاً لهـا ، في شخصية تـاريخية . وفي هذه الفترة كتب « حياة يسوع » .

ولكن رغم سعي هيجـل إلى تجاوز فلسفـة « حـركـة التنـويـر » ، مـع احتفاظه ببعض عناصرها ، فإنه سعى أيضاً إلى تجاوز وجهة نظر كانط في ما يتعلق بالدين .

وكما ذكرت سابقاً ، فإن هيجل استطاع الشروع بتلك المهمة ، بواسطة تقصي المسألة تـاريخياً ، ثم بـواسطة تبـديل صـوفي لبعض معطيـات التصور الديني لكانط .

إنه لم يحارب منهج سلفه العظيم ولكنه حارب نتائجه . فما رفضـه من كتاب كانط هو الجزء الذي يجمل فيه كانط بعمق أفكـار « حركـة التنـويـر » ، لأن هذه الأفكار لا تتناول دين يسوع ، وكـل دين آخر ، إلّا في عـلاقته مـع الاصلاح الخلقي للانسان[37] . وهكذا تأخذ المحبة ثأرها من صوت الضمير كـما صوّره كـانط . ففي « روح المسيحية » حـارب هيجـل كـانط ونـامـوسـه الخلقي وشرح دين المسيح بطريقة مختلفة عما فعله في « حياة يسوع » ، فأظهر أن خلقية يسوع ليست خلقية الناموس بل خلقية المحبة .

إن الشريعة اليهـودية ، إذ تؤكـد وجود عـلاقة خـارجية تمـاماً بـين الله والانسان ، إنما تؤكد وجود انفصام بينهما . والنـاموس الخلقي لكـانط ينشىء بدوره انفصاماً بين الذات الفاعلة وبين الناموس الخلقي ، فالأولى فـردية أمـا الثاني فعامّ وكليّ . لكن يسوع ، بتأسيسه دين محبـة ، ابدل النـاموس الخلقي بنمط من الشعور ، أي بميل إلى العمل على هذا النحو . وهـذا الميل أسـاسه

(37) كانت هذه الفكرة تتكرر بلا توقف في ذلك القرن (انظر Dilthey op. cit) .

من صلبه ، وموضوعه المثالي في ذاته لا في أي شيء غـريب (أي في نامـوس العقل الخلقي) .

« الخلقية عند كـانط هي بالأحـرى اخضاع الفـردي للكليّ ، وانتصـار هـذا على ذاك ، أي عـلى نقيضه ، اكثر من كونها رفع الفردي إلى مستوى الكليّ ، وأكثر من وحدة المتناقضـين أو حذفهـا »[38] . والخلقية عنـد هيجل يجب أن تكـون الغاء هـذا الانفصام الـذي تظهـره الحياة ، فهي تخلق ذلـك الانسجام بالمحبة التي تستبعد أية فكرة للواجب .

إن كانط بتأكيده سيادة النـاموس الخلقي عـلى ميول الانسـان ، يؤكد بهذا الكلام نفسه سيطرة المفهوم العقلي المحض على الحياة . والاختـلاف بين النـاموس الخلقي عنـد كانط والشريعة اليهـودية ليس إلّا اختـلافاً شكليـاً ، فكلاهما يقيمان انفصاماً بدل أن يلغياه . وإذا كانت الشريعة اليهـودية تُنصب معلماً خـارج الانسان ، فـإن نـامـوس كـانط يـدخـل معلماً في قلب الانسـان نفسـه . ولهذا السبب سـاوى هيجل هـذه المرة بـين نامـوس كانط والشـريعة اليهودية . فنـاموس كـانط يمزّق الـوحدة الحيـة للنفس ، لأنه هـو أيضاً يقيم تناقضات[39] .

ولكن إذا كنا قد وصلنـا إلى هذا الحـد في كلامنـا على فكـرة « المحبة » التي تـوحِّد وتصـالح التعـارضـات ، فلنـذكـر هنـا تلك السـطور التي كتبهـا هيجل : « المحبة لا تعبّر عن أي واجب . إنها ليست أمراً كلياً يتعارض مـع أمـر خصوصي . ولا هي وحـدة من عمـل الفكـر المجـرّد ، إنمـا هي وحـدة تخلقها الروح . إنها طريقة وجـود الهية . أنْ تحب الله يعني أن تشعر بنفسك عائشاً في وحدة مع الكـل ، وأن تشعر بنفسـك عائشـاً في الحياة اللامتناهيـة الخـالية من الحـدود . أما القـول : « احبب قريبك كنفسك » فلا يعني أن تحب قريبك بقدر ما تحب ذاتك ، لأن محبتك لـذاتك لا معنى لهـا ، ولكنه يعني :

(38) هيجل ، « الأعمال اللاهوتية » ، طبعة نول ، ص ٣٨٨ ، ٣٨٧ .
(39) نفسه ، ص ٢٦٤ ـ ٢٧٥ ؛ ٢٩٣ ـ ٢٩٦ ؛ ٣٨٦ ـ ٣٩٥ .

احبب قريبك لأنه أنت ! »[٤٠] . وهكذا تكون المحبة نوعاً من الوعي الخارق لعمق وحدة الحياة .

نرى إذن ، أن عمل هيجل يتوالى من جهته النظرية الخالصة تحت تأثير كانط ، ولكن بمعارضة لكانط ، وبالتصدي لجميع التعارضات الحادة التي أنشأتها « حركة التنوير » بين مفاهيم مثل : الله والعالم ، الحرية والطبيعة ، الفهم والعاطفة . وقد فعل هيجل ذلك بمقتضى التكون الخاص لفكره أولاً ، وتحت وطأة اتجاه عام أخذ يؤكده الفكر في عصره[٤١] .

فقد بدأت الفلسفة تعارض جفاف العقل في « حركة التنوير » والعلوم الطبيعية[٤٢] ، مستوحية مثل الشعر ولا سيما شعر غوته العظيم . وكشف هولدرلين في كتابه « هيباريون » (١٧٩٤) عن حلولية أساسها وَجْدُ الفنان . فالعقل في رأيه لا يستطيع فهم اللامتناهي . ومن أجل فهمه لا بدّ من الالهام . وهذا ما أكده هيجل بقوله إنه من أجل الكلام على الله يجب أن نكون ملهمين[٤٣] .

أرادت الفلسفة ، وربما بتأثير من غوته ، أن تؤكد بدورها حقوق الحَدْس على مفاهيم الفهم المجردة . وهكذا سيفهم هيجل ، وهو مؤلف « المنطق » و« الموسوعة » ، الفهم والعلم « بأنهما يحرمان الطبيعة من ربيعها » ، وسيكون طموح فلسفته رسم الطبيعة على مستوى الفكر ، ولكن مع انقاذ « ربيعها » ، وانشاؤها مع الحفاظ عليها حية ، كما يتناولها الحَدْس .

(٤٠) نفسه ، ص ٢٩٦ .

(٤١) كان تأثير شيلينج كبيراً في هذا المجال . فالمثالية الموضوعية تحولت عنده إلى حلولية (ديلتاي ، ص ٥٧) . ولكن هذا التصور الحلولي ظهر أيضاً في أعمال شعراء مثل غوته وهولدرلين .

(٤٢) وصف هوفدينج هذا الاستعداد وصفاً طريفاً (تاريخ الفلسفة الحديثة ، الجزء الثاني ، ص ١٣٩ ـ ١٤٣ ، ترجمة بورديه ، باريس ١٩٠٦)

(٤٣) هيجل ، « الأعمال اللاهوتية » ، طبعة نول ، ص ٣٠٥ .

ويستشهد بغوته في هذه المناسبات : « إنه (غوته) يحس بالحياة وبوحدتها الكلية . ويستشف أن الكون وحدةٌ عضوية وكلٌّ عقلاني»[٤٤] . وهكذا كان الهدف الذي اتجه إليه جهد الفكر الهيجلي : اعطاء تعبير عقلي للحَدْس غوته هذا[٤٥] .

لقد جزأ نقد كانط ـ إذا جاز التعبير ـ الوحدة الحية للطبيعة . فلا توجد لديه فكرة الكلية ولا مفهوم الكل . فيبدو الانسجام الحي للروح وكأنه يعاني من تحليلاته وتمييزاته . فنقده يفرِّق كل شيء ، ويرفع حواجز في كل ممرّ : فلم تعد الروح قادرة على العبور من شكل جوهري للكائن إلى شكل آخر . وهذه الحدود تجعل تحقيق فكرة التطور ممتنعاً . وقد أراد المفكرون الذين جاؤ وا بعد كانط اعادة انشاء الوحدة ، وحاولوا أن يعيدوا البناء حيث بدا لهم أن كانط كان يهدم . وهكذا فإن موضوع الفلسفة عند هيجل سيكون ترميم الانسجام المهدّم في الروح[٤٦] .

كان هيجل أكبر المثاليين بعد كانط ، وقد اجتمعت فيه مختلف طموحات الفلسفة الرومانطيقية ، ومارس هذه النزعات على حد تعبير أوبرفغ . ودفعته عاطفته الدينية العميقة وحاجته الشديدة إلى الوحدة مع الكل والنزعة العامة لفكر عصره ، إلى اطلاق نزعته الصوفية والاستسلام لطابع روحه الحلولي . . .

ولكن ، ماذا حصل ؟

المؤلف نفسه الذي كتب في العام ١٧٩٩ « روح المسيحية » والذي استشهدت سابقاً بجملة مميزة منه ، أعلن لشيلينج في العام التالي : « في نموي العلمي ، المنطلق من حاجات الانسانية الدنيئة ، ما اضطرني أن أعود

(٤٤) هيجل ، « الأعمال » ، المجلد السابع ، الجزء الأول ، ص ٢١ .

(٤٥) انظر في هذا المجال المقارنة التي قام بها هيجل نفسه بين الشعر والفلسفة النظرية (هيجل ، « الأعمال » ، المجلد العاشر ، الجزء الثالث ، ص ٢٥٤) .

(٤٦) هيجل ، الأعمال ، المجلد الأول ، ص ١٧٢ ـ الفروق بين فلسفة فيختة وشيلينج .

إلى العلم قهراً . والمثل الأعلى لشبابي اضطر إلى اتخاذ صيغة عقلانية ، بل اضطر أن يتحول إلى مذهب . . . »[٤٧] .

والحقيقة أن الجانب العقلي ، وكذلك الجانب الواقعي لفكر هيجل ، كانا بمثابة الكابح لنزعته الصوفية . ولذا يجب القول عند الحديث عن نزعة هيجل الشاب الصوفية أنها ليست ارادة الاضمحلال في الكل ، الكل الذي سيثبته الفكر وحده بطريقة مطلقة ، عن طريق رد كلٍّ ما تقدمه الحقيقة الواقعية من فردي ، وكلٍّ حركة إلى ظاهر بسيط . صوفية هيجل ليست صوفية السكون ، أنها صوفية دينامية ، إذا جاز التعبير . وهي تتغذى بالوقائع . فالكل عند هيجل هو حياة . ولكن مقولات الفهم لا تتناول سوى كليّ مفرغ من كل عنصر فردي أو ميزة خاصة ، ولذلك رفضه هيجل . والناموس الخلقي عند كانط مرفوض بدوره ، فهو لا يقيم وزناً لما هو فردي ، ما دام يسحق الفرد .

تصور هيجل أن العلاقة التي تربط الفرد بالكون ، الذي هو حياة ، علاقة عضوية بين الكل وجزئه . وهكذا ، لا يمكن اثبات كون الأجزاء موجودة ومعقولة ما لم نثبت الكل في الوقت نفسه . والعكس صحيح أيضاً ، فالكل لا يمكن أن يُعقل من دون الأجزاء . فهو لا يستوعبها في تماثل مجرد (هوية مجردة) ، بل يؤكد حتمية وجودها الحقيقي[٤٨] .

بادراك هذا النوع من العلاقة ، وتطبيقها على الكائن بكامله ، امتلك هيجل معنى الوحدة الحية والعضوية للعالم[٤٩] فحدّد سمة الواقع بمجمله بأنها

(٤٧) يرجح أن هيجل يتحدث عن الفقرة التي نشرها نول من مذهبه . وفي الرسالة نفسها إلى شيلينج يعلن قراره بأن يكرّس نفسه كلياً للدراسة . وهذا ما فعله في جامعة يينا حيث عمل على التدوين الأولي لمذهبه . ولكن هذا المذهب لم ينشر إلّا سنة ١٩١٥ في هايدلبرغ تحت عنوان : المذهب الأول لهيجل (Hegels Erstes System) . وقد نشره السيدان هانتس آرانبرغ وهربرت لينك .

(٤٨) هيجل ، « الأعمال اللاهوتية » ، طبعة نول ، ص ٣٤٧ - ٣٥١ .

(٤٩) فكرة العلاقة العضوية ستصبح الفكرة الأساسية في المذهب الهيجلي .

حياة . أمّا الرباط الذي يوحّد ويجمع الكل والأجزاء فيسمى المحبة . وهذان المفهومان كشفا له لغز شخصية المسيح وأوضحا له المعنى العميق للدين المسيحي . ومن جهة أخرى ، فإنه كان مقتنعاً في تلك المرحلة أن الكون ، أو الكل ، لا يمكن أن يُدرك بالفكر بل بالدين وحده . صحيح أنه غيّر رأيه فيما بعد ، ولكن في تلك الفترة كانت هذه هي الكلمة الأخيرة لحكمته .

٣ ـ « حياة يسوع »

يمثل كتاب « حياة يسوع » مرحلة من الطريق التي اجتازها فكر هيجل بين عامي ١٧٩٠ و ١٨٠٠ ، كما اشرت سابقاً . فقد كتبه في العام ١٧٩٥ ، فكانت صياغته واقعة تحت التأثير المباشر لكتاب كانط عن الدين . وأشار ديلتاي إلى أنه كتاب هيجل الأول . وعلى أية حال ، فهو الكتاب الوحيد المنجز تماماً من بين كل ما نشره نول .

اهتمامات هيجل هنا خلقية وليست تاريخية . والمهمة التي انتدب نفسه لها سبق أن حددها كانط ، بقوله إنه يمكن اجراء التجربة التالية : لنتفحص الوحي ، بما هو مذهب تاريخي ، بطريقة مجزأة ، فلا نتناول منه سوى المفاهيم الخلقية ، ولنر إذا كان سيقودنا ، بهذه الطريقة ، إلى مذهب عقلي خالص للدين . فإذا نجحت التجربة يمكن القول بوجود تلاؤم بين العقل والكتاب المقدس[٥٠]. كان كانط يرى أن الاعتقاد الديني الخالص هو التأويل الأسمى للاعتقاد الوضعي[٥١] . وهكذا سعى إلى أن يكتشف في الكتاب المقدس معنى « يكون في انسجام مع اقدس تعاليم العقل » . وكان كانط يرى أن هذا السعي واجب[٥٢] .

---

(٥٠) مقدمة الطبعة الثانية من كتاب كانط ، « الدين في حدود العقل » ص ١٣ ـ ١٤ .

(٥١) نفسه ، ص ١٣٠ .

(٥٢) نفسه ، ص ٩٨ .

وقد كتب هيجل « حياة يسوع » تلبية لهذا الواجب . وسعى فيه إلى أن يظهر ، بمثل عيني ، الصراع بين دين خالص ، هو مذهب يسوع ، وبين دين وضعي متحجر في شكلية صارمة ، دين خارجي تماماً ، هو الدين اليهودي ، وإلى أن يؤكد السيادة الخلقية للشخص بالنسبة إلى كل ناموس يريد أن يفرض نفسه عليه من الخارج . وهذه هي مهمة هيجل في كتابه .

وهكذا جعل هيجل من يسوع كانطياً قبل وجود كانط ، إذا جاز التعبير . فنحن نسمع مسيح هيجل يتكلم وكأنه تلميذ لكانط ، فيتحدث عن العقل ، القياس الأسمى للاعتقاد والمعرفة ، « القياس الذي للألوهة أيضاً » ؛ وعن العقل « الذي لا تستطيع أية سلطة على الأرض أو في السماء أن تجد مقياساً للحكم عليه » سوى ما تأخذه منه بذاته ؛ وعن العقل الحر الذي يملي على ذاته ناموس سلوكه الخلقي ، وهو ناموس « مقدس » ، « ناموس تحرير يخضع له الانسان . . . بحرية » ؛ وعن العقل « الذي يفرض الخلقية كواجب » ، وكواجب أوحد ؛ وعن عبادة الله المؤسسة على الناموس الخلقي[٥٣] .

وحسب يسوع هيجل فإن الاعتقاد بالعقل وطاعته وحدهما اللذين يمنحان الانسان السلام والعظمة الحقيقية « لأن الانسان لا يحقق مصيره السامي إلّا بايمانه بالعقل »[٥٤] .

فهل ثمة حاجة إلى القول إن المسيح الذي احيته الأناجيل وتحدثت عنه لم يتكلم يوماً بمثل هذه اللغة ، وإنه من غير المرجح أن يكون قد قام بمحادثات عن « الخدمة المتجددة للعقل المستقر في حقوقه »[٥٥] .

في رسالة إلى شيلينج مؤرخة في ١٦ نيسان ١٧٩٥[٥٦] ، يتعجب

---

(٥٣) انظر الصفحات التالية من هذا الكتاب : (٦٧ ، ١٠٩ ـ ١١٠ ، ٧٩ ، ٩٩ ، ٥٤ ، ٥٥) .

(٥٤) انظر الصفحتان (٥٣ ـ ٥٤) من هذا الكتاب .

(٥٥) انظر الصفحات التالية من هذا الكتاب : (٧٩ ، ٨٠ ، ٩١ ، ١١٣).

(٥٦) بدأ هيجل بكتابة « حياة يسوع » في التاسع من أيار سنة ١٧٩٥ .

هيجل ـ عن خطأ أو عن صواب ، فليس لنا أن نحكم في ذلك هنا ـ من الكشف « المتأخر » جداً للكرامة التي يضفيها على الشخص الانساني استقلاله الخلقي . فالقيمة الخالدة لفلسفة كانط العملية تقوم في نظر هيجل الشاب على هذا الكشف . ويقول ما جوهره إن هذا الكشف أنصع علامة للأزمنة التي نعيش فيها « ودليل على أن الهالة التي تحيط بروؤس طغاة هذا العالم وآلهته تختفي » . فالفلاسفة يسعون إلى إقامة الدليل على هذه الكرامة ، وستتعلم الشعوب كيف تعيها[٥٧] .

والمسيح في « حياة يسوع » أحد هؤلاء الفلاسفة . إنه يتكلم غالباً على كرامة الانسان الحر خلقياً والذي ينال ، بفضل عقله ، مَلَكَة « استخلاص مفهوم الألوهة من ذاته ومعرفة ارادتها . . . » فيعظ تلاميذه : « أيها الأصدقاء ، أقول لكم ألا تخافوا البشر الذين لا يستطيعون في الحقيقة أن يقتلوا سوى الجسد ، ولا تمتد قدرتهم إلى أبعد من هذا ، ولكن خافوا أن تُهان كرامة روحكم ، فتظهروا أمام العقل وأمام الألوهة مستحقين لفقدان السعادة الأسمى »[٥٨] .

إن مهمة مسيح هيجل على الأرض تكمن في جعل البشر أكثر نبلاً ، بأن يوقظ في روحهم وعي كرامتهم ، ويجعلهم يعرفون الناموس الداخلي الذي يجب أن يخضعوا له بحرية[٥٩] . إنه يوجز الناموس الأساسي لتعليمه بالصيغة الكانطية الشهيرة : « تصرّفوا بحسب مبدأ أساسي ، على أن يكون بامكانكم أن ترغبوا في أن يطبق عليكم أيضاً ، بصفته قانوناً عاماً للبشر »[٦٠] .

وهكذا نرى أن الهدف التي تابعه هيجل الشاب في « حياة يسوع » هو

---

(٥٧) هيجل ، « الأعمال » ، المجلد التاسع عشر ، الجزء الأول ، ص ١٥ .

(٥٨) انظر الصفحتين (٦٦) و (٩٠) من هذا الكتاب .

(٥٩) انظر الصفحتين (٧٩) و (١٢٣) من هذا الكتاب .

(٦٠) انظر الصفحة (٦٣) من هذا الكتاب .

التجربة التي أوحى بها كانط ، والتي تحدثتُ عنها سابقاً : الكشف عن معنى في الكتاب المقدس « يكون منسجماً مع أقدس تعاليم العقل » .

لقد تصرّف هيجل بحرية لا تحسب أي حساب لنص الأناجيل نفسه ، فأعطاها معنى كانطياً تماماً . فتحول مذهب يسوع التعليمي ، بكل بساطة ، إلى خلقية كانطية . ولكن ألَمْ يقل كانط : « مع أن هذا التأويل يمكن أن يبدو جبرياً إزاء نص الوحي وكأنه مبالغ فيه ، وقد يكون مبالغاً فيه فعلاً ، فإنه يكفي أن يستطيع هذا النص تحمله حتى نفضله على أي تأويل حرفي خالٍ من أية فائدة للخلقية ، أو حتى مضادٍ تماماً لدوافعها »[٦١] ؟ لقد رأى كانط أن الاصلاح الخلقي هو الغاية الحقيقية لكل دين عقلي ، وهذا الأمر كان يراه هيجل أيضاً في ذلك الوقت .

وهكذا حذف ببساطة المعجزات التي ترويها الأناجيل ، وقدّم لنا في العام ١٧٩٥ « حياة يسوع » من دون معجزات . وقد قارن ديلتاي « حياة يسوع » هذه بمسرحية قديمة ، وبأنتيجون مأساة سوفوكليس ، حيث ينشب الصراع بين نواميس الطبيعة السرمدية التي تمثلها آنتيجون وبين النواميس الوضعية .

وكما أشرت سابقاً فإن المحبة ، الدافع الأساسي في الخلقية والدين اللذين أسسهما المسيح ، هي هنا تابع لصوت الضمير بحسب كانط . فتحت تأثير كانط يشدد هيجل دائماً على قدرة العقل البشري على أن يفرض ناموسه على نفسه . ولهذا السبب فقد اعتبر أن الخلقية مؤسسة في جوهر العقل . و « هكذا فإنه نقل إلى عصر المسيحية الأولى وجهة النظر هذه ، إضافة إلى النفور العميق ، المرير والشخصي ، الذي يحس به نحو الدين الوضعي وعقائده وطقوسه »[٦٢] .

---

(٦١) كانط ، « الدين في حدود العقل » ، ص ١٣٠ و ١٣١ .

(٦٢) DILTHEY, op. cit., 24.

بعد كل ما ذكرناه يبدو جلياً أن « حياة يسوع » ليس ترجمة للأناجيل كما يمكن أن يُفهَم من العنوان الثانوي الذي وضعته منشورات روك . والاستشهادات التي سبق ذكرها تشهد بنفسها على ذلك بطريقة كافية . وكذلك فإن طبعة نول تنقصها الحاشية التي أضافها هيجل نفسه إلى العنوان الأساسي لكتابه ، وهي : « توفيق بين الأناجيل حسب ترجمتي الخاصة » .

ولكن كيف نفسِّر هذه الحاشية الآن ؟ هل أن هيجل لحظة قراره كتابة « حياة يسوع » وضع خطة للقيام بترجمة نصوص الأناجيل ، ثم ترك هذه الخطة عندما بدأ الكتابة فعلاً ؟ هذا أمر محتمل .

ولكن الأكثر احتمالاً أن الحاشية موضوع التساؤل يجب أن تُفسَّر على الشكل التالي : من المؤكد أن هيجل ، أثناء تأليفه الكتاب ، راجع النص اليوناني للكتاب المقدس(٦٣) ، وهكذا فإن لفظة ترجمة تشير ، على الأرجح ، إلى هذا الأمر وحسب . أمّا كلمة « توفيق » فتوضح أن مؤلف « حياة يسوع » سعى إلى مزج الروايات الأربع للأناجيل ، المتباعدة إجمالاً ، في رواية واحدة .

فإلى أي حد استوحى هيجل كلاً من الأناجيل الأربعة ؟

انجيل لوقا هو المصدر الأساسي الذي استوحاه هيجل ، وقد استعمله قبل سواه وأكثر من سواه . وهذا الواقع يفرض نفسه عند مقارنة « حياة يسوع » بانجيل لوقا . فباستثناء المقاطع التي يروي فيها الانجيلي معجزات يسوع ، والتي حذفها هيجل بكل بساطة(٦٤) ، فإن رواية لوقا مرّت بكاملها في « حياة يسوع » .

وأكثر من ذلك فإن هيجل يروي قصة المسيح محافظاً على الترتيب

(٦٣) انظر الهوامش التي سجلها هيجل في الصفحتين (١٢٥) و (١٣٦) من هذا الكتاب .

(٦٤) انظر الصفحة (٣٨) من هذا الكتاب .

الزمني الذي راعاه لوقا ، باستثناء بعض الفوارق غير المهمة(٦٥) .

وعلى سبيل المثال ، فإن مؤلف « حياة يسوع » يستبق الترتيب الزمني الذي اتبعه متّى (لم يذكر سوى نهاية حياة يوحنا المعمدان (متى ١٤ : ١ - ١٢) ، أمّا هيجل فإنه يروي في بداية كتابه كامل حياة يوحنا المعمدان ، كما فعل لوقا في انجيله (لوقا ٣ : ١ - ٢٠)(٦٦) .

واشارات هيجل إلى الأناجيل تعزز بدورها ما أنا بصدد قوله عن علاقة « حياة يسوع » بانجيل لوقا . لأننا إذا وضعنا هذه الاشارات في أربعة أعمدة ، بحيث يعود كل منها إلى أحد الأناجيل الأربعة ، فإننا نلاحظ أن عدد الاشارات إلى انجيل لوقا يفوق كثيراً الاشارات إلى الأناجيل الأخرى ، وأكثر من ذلك ، فإنها تتوالى بحسب تسلسل فصول انجيل لوقا نفسها ، وهذا ما لا ينطبق على الاشارات التي وضعها مؤلف « حياة يسوع » بالنسبة إلى الأناجيل الأخرى(٦٧) .

(٦٥) إن هيجل لم يحافظ مثلاً على الترتيب الزمني للوقا في حديثه عن دعوة متى - لاوي بعد العظة على الجبل . فحسب لوقا (٥ : ٢٧ - ٣٢) تمت دعوة لاوي قبل العظة على الجبل . وهنا تتبع هيجل ما كتبه متى (٩ : ٩ - ١٣) . ولكن من المؤكد أن هذا الأمر لا أهمية له .

وقد غيّر مؤلف « حياة يسوع » الترتيب الذي اتبعه لوقا ، فسرد محادثة يسوع مع زكا بعد مثل الوزنات العشر . وقد وضع لوقا هذه المحادثة - التي لم يذكرها سواه من الانجيليين - بعد مثل الوزنات العشر (لوقا ١٨ : ٣١ - ٣٤ ولوقا ١٩) . وبهذا التغيير جعل هيجل الرواية أكثر وحدة مما هي عند لوقا . لأن مثل الوزنات العشر يرتبط بدقة بتطور الأفكار عند يسوع حول موضوع الموت الذي ينتظره ، وموضوع العلاقات التي يعتقد يسوع أنها قائمة بين الله والبشر . وقد استخدم هذا المثل لتوضيح أفكاره بنموذج محسوس . ولهذا السبب فإن مكانه حيث وضعه هيجل .

(٦٦) انظر الصفحة (٤١) من هذا الكتاب .

(٦٧) تبدأ الاشارة إلى نصوص لوقا في الفصل الثاني وتتوالى تدريجياً حتى الفصل الثاني والعشرين من هذا الانجيل الذي يحتوي على أربعة وعشرين فصلاً . أما الفصل الخامس فهو الوحيد الذي لا يوجد ضمن هذه السلسلة الطويلة ، لأن لوقا لا يروي =

ولكن هيجل لم يحفظ الترتيب الزمني لانجيل لوقا ، بل راعى أيضاً الطريقة التي يروي بها هذا الانجيلي بعض الأحداث .

ففي مَثَل الأمير الذي أراد الاحتفال بزفاف ابنه بوليمة فاخرة[٦٨] ، نجد أن رواية هيجل أقرب إلى رواية لوقا (الفصل ١٤) منها إلى رواية متى (الفصل ٢٢)[٦٩] ، رغم أن الاشارة هنا إلى متى : « ... فاعتذر أحدهم عن عدم المجيء لأن عنده أرضاً يجب أن يراها ، والثاني بأن عليه أن يذهب لتجريب خمسة أزواج من الثيران قد اشتراها . أما الثالث فبرر غيابه بأنه قد تزوج ... »[٦٩ مكرر]. وهذه الأمور يرويها لوقا، اما متى فاكتفى بالقول إن المدعوين « ... ذهبوا ، الأول إلى حقله ، والثاني إلى تجارته ... » ويروي متى أيضاً أن المدعوين قتلوا العبيد ، الأمر الذي دفع الأمير إلى أرسال جنوده لمعاقبتهم . وهذا الحدث لم يذكره لوقا ولا هيجل .

= فيه سوى المعجزات . ولا توجد إشارات إلى الفصلين الثالث والعشرين والخامس والعشرين من انجيل لوقا ، لأن انجيل مرقس يروي آلام المسيح وموته بشكل أكثر تفصيلاً ، لذلك استوحاه هيجل . أما الفصل الأول من انجيل لوقا الذي يروي ولادة يوحنا المعمدان وبشارة مريم فلم يستعمله هيجل .

ولكن الاشارات إلى متى مختلفة . فبعد الاشارات إلى الفصول الأول والثاني والثالث في مطلع كتاب هيجل ، نجد اشارة إلى الفصل الرابع عشر . ثم تتوالى الاشارات بحسب ترتيب فصول انجيل متى نفسها (٤ ، ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١٢ ، ١٧ ، ١٨) ، ولكننا نجد بعد ذلك ثلاث اشارات متباعدة (الفصول : ١١ ، ١٦ ، ٢٣) . والسبب في ذلك أن الأحداث التي يرويها متى في هذه المقاطع رواها لوقا في فصلين متتاليين (١٠ و ١١) . وهكذا يظهر أن هيجل تبع رواية لوقا لا رواية متى . والاشارات إلى متى لا تسير بعد ذلك بموجب ترتيب الفصول نفسها (٢٢ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ١١ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥) . والأمر نفسه ينطبق على انجيل مرقس . أما بالنسبة إلى انجيل يوحنا فإن اشارات هيجل تتبع ترتيب فصوله نفسها ، باستثناء الاشارة الثانية إلى هذا الانجيل (الفصل الثالث) .

(٦٨) انظر الصفحات (٩٤ - ٩٦) من هذه الترجمة .

(٦٩) انظر الصفحة (٩٤) من هذا الكتاب .

وبشكل عام ، فإن هيجل يستعين بالأناجيل الأخرى ليكمل قصة المسيح ببعض المعطيات التي لا توجد عند لوقا ، أو بالأحرى ليجعل الرواية أكثر دقة وتفصيلاً ، في بعض نواحيها ، مما هي عند هذا الانجيلي .

وهكذا استعان هيجل بانجيل يوحنا من أجل اكمال رواية لوقا فيما يتعلق بيوحنا المعمدان[٧٠] واستعان أيضاً بانجيل متى من أجل اكمال الرواية الموجزة التي قدمها لوقا عن موت يوحنا المعمدان[٧١] .

واقتبس هيجل عن يوحنا رواية المشاحنة مع الباعة الذين جعلوا تجارتهم داخل الهيكل وحوار يسوع مع نيقوديموس ومع السامرية[٧٢] ، لأن لوقا لم يقدم تفاصيل عما جرى بمناسبة زيارة يسوع الأولى إلى أورشليم (من بعد أن بدأ حياته العامة كمعلم) . واستعان أيضاً بانجيل متى ، لأن لوقا لا يذكر شيئاً عن محادثة يسوع مع أم يوحنا ويعقوب (حوار جرى في زيارة المسيح الأخيرة إلى أورشليم) ، ولا عن القرار الذي اتخذه المجمع الكبير في أورشليم بالقبض على يسوع . واستعان كذلك برواية يوحنا ليسرد ما حصل في بيت عَنْيا في المناسبة نفسها[٧٣] . وفي الصفحة التي تلي ذلك من كتابه اقتبس هيجل مراجع مفصلة من متى . وبعد بضع صفحات أخرى ، ورغم عدم وجود اشارة إلى لوقا ، نجد أن مَثَل الكرمة مأخوذ من انجيله . ولم

---

(٧٠) انظر الصفحة (٤٩) من هذا الكتاب .

(٧١) ينقل لوقا خبر موت يوحنا المعمدان بعبارة واحدة أوردها على لسان هيرودوس : « أما يوحنا فقد ضربت عنقه » . ولكن متى يروي في الفصل الرابع عشر الظروف التي أدّت إلى ضرب عنق يوحنا المعمدان . ولا بدّ من التنويه بأن هيجل لم يضع إشارة إلى مرقس (٦ : ١٤ - ٢٩) ، مع أن الفكرة التي أوردها من خلال عبارة : « حتى ولو طلبت نصف مملكته ، فسيمنحها ايّاها » غير موجودة إلّا عند مرقس .

(٧٢) طرد الباعة من الهيكل والمحادثتان مع السامرية ونيقوديموس لم يذكرهما سوى يوحنا .

(٧٣) اكتفى لوقا بذكر توقف يسوع في بيت عنيا ، ولكنه لم يذكر محادثته مع يهوذا في موضوع مريم .

يتحدث لوقا عن اليهود اليونانيين الذين طلبوا مباحثة يسوع، ولم يسرد حوار يسوع مع الفرّيسي الذي أراد معرفة المبدأ الأسمى للخلقية ، فأكمل هيجل معطيات لوقا المتعلقة بزيارة يسوع الأخيرة إلى أورشليم بمعطيات استعارها من يوحنا (١٢ : ٢٩) وهي تقابل متى . (١٢ : ٣٤ - ٤٠)(٧٤) .

* * *

يربط ديلتاي كتاب هيجل هذا بمخططه المتعلق بتأسيس ديانة شعبية ، ذلك المخطط الذي أشرت إليه سابقاً(٧٥) . فكتاب « حياة يسوع » ذو هدف عملي إذن ، ولكن يمكننا القول ان هيجل لم يتابع في « حياة يسوع » سوى هدف نظري . لقد أراد أن « يقوم بالتجربة » . التي تحدث عنها كانط في المقدمة الثانية لكتابه عن الدين .

وكيفما كان الأمر ، فما يهم ذكره هنا ، هو المكانة الفريدة التي يحتلها هذا الكتاب ، ليس بين « دفاتر شباب » هيجل وحسب ، بل بين سائر مؤلفاته أيضاً . فمن الواضح أن كتاب « حياة يسوع » هو الوحيد الذي كتبه هيجل ابّان خضوعه بطاعة ، ودون أي رد فعل شخصي ، لتأثير مؤسس

(٧٤) هذه الاشارة غير موجودة عند هيجل .

وحتى نوضح كيف سعى هيجل إلى اتمام رواية لوقا بمعطيات موجودة عند الانجيليين الآخرين ، نذكر ما يلي :

بعد سرد حالة الأرملة التي قدمت فلسين إلى الهيكل ، يتكلم لوقا على احساس يسوع الداخلي بزوال العبادة اليهودية الخ . . . وهنا يستعين هيجل بانجيل متى لكي يتحدث عن تعنيف يسوع للفريسيين . وهذا أمر لم يذكره لوقا .

ومن جهة أخرى فإن هيجل نقل العظة على الجبل عن متى ، لأن هذا الأخير رواها مفصلة (متى ٦ : ١٧ - متى ٧) ، والأمر نفسه بالنسبة إلى آلام المسيح وموته فقد نقلهما عن مرقس لأنه فصّلها أكثر من لوقا .

وغالباً ، فإن الاشارات إلى الأناجيل الأخرى ليست إلّا بهدف بعض المعطيات التفصيلية التي نقلها هيجل من أجل توضيح رواية لوقا .

(٧٥) DILTHEY, op. cit., 21.

الفلسفة النقدية . وقد نوّهت بذلك سابقاً . ففكر هيجل كان ينمو تحت تأثير كانط ويتمرّس بالمسائل التي أثارها كانط ، ولكن مع تحركه في الوقت نفسه ضد اتجاهات الفلسفة النقدية . في كتاب « حياة يسوع » يبدو هيجل تلميذاً يقلد كانط حرفياً(٧٦) .

وبهذه الصفة فإن كتاب هيجل الأول ذو قيمة أكيدة بالنسبة إلى الذين يرغبون في أن يعرفوا عن كثب المراحل التي اجتازها فكره . ولكن « حياة يسوع » مثل سائر كتابات الشباب للفيلسوف الألماني ، يقدّم اكثر من ذلك . فهو يمنح بعض الفائدة لكل المهتمين بتاريخ المُثُل ، الذي يمكن اعتباره تاريخاً للتأثيرات .

وفي النهاية ، إن كتاب « حياة يسوع » ذو قيمة خاصة سيعترف بها كل مَنْ يقرأه .

إن كتابات هيجل الشاب أهلٌ لأن تُترجم ، وخاصة « روح المسيحية ومصيرها » . وآمل أن تشجع هذه المحاولة التي قمت بها سائر العاملين في هذا الحقل .

وفي الختام لا بدّ من بعض الملاحظات المتعلقة بهذه الترجمة :

من المعلوم أنني حاولت نقل معنى النص الألماني بأقصى أمانة ممكنة . ولكن هيجل كتب « حياة يسوع » لنفسه ، لذلك لم يعتن كثيراً بالانشاء . ومن بين عدة تعابير ممكنة لم يختر هيجل أكثرها ابتكاراً . وهذا ما يفسر كوني أنا أيضاً ، في موضع الاختيار بين عدة جمل فرنسية موازية ، كنت مجبرةً على

(٧٦) لقد اشرت سابقاً إلى أن موقف هيجل من كانط لم يستمر إلّا لفترة قصيرة . وكتابه « نقد المسيحية الوضعية » الموضوع في السنة نفسها التي وضع فيها كتاب « حياة يسوع » يدل بوضوح على اتجاه إلى التحرر من هذا الموقف . وهذا ما يرجح الافتراض بأن « حياة يسوع » ليس سوى « تفحص » قام به هيجل بالمعنى الذي تحدث عنه في رسالته إلى شيلينج ، والتي استشهدت بها سابقاً .

استعمال الجملة التي يبدو لي أنها الأكثر أمانة في نقل « إهمال » هيجل ، إذا جاز التعبير .

لغة « حياة يسوع » هي في الغالب ذات بناء غير موفق . فارتباط الجمل الثانوية بالجملة الأساسية لم يتم بحسب قواعد النحو . وهكذا فإن منشورات نول قدمت نصاً مثقلاً بالمعترضات التي نادراً ما أحاطت بجمل معترضة بالفعل . مما اضطر السيدين نول وروك إلى اضافة بعض الكلمات هنا وهناك من أجل جعل النص مفهوماً .

ولقد قارنت بدقة بين نص منشورات نول ونص منشورات روك الذي يختلف عن الأول إلى حد ما . وأشرت إلى كل الفروقات التي وجدتها . وكلما بدا لي أن طبعة روك أكثر توافقاً مع المعنى العام كنت استعملها ، الأمر الذي دوّنته أيضاً في الهامش .

وجزأت النص إلى فقرات قصيرة وعديدة ، تفوق كثيراً ما نجده في طبعتي نول وروك ، وذلك من أجل تحديد المحطات المنطقية لتطور المحادثة ، أو ابراز أهمية بعض الأفكار ، أو اعطاء العديد من الحوارات الشكل الداخلي الذي تتميز به ، وباختصار ، من أجل جعل قراءة « حياة يسوع » أكثر سهولة . هذا بقطع النظر عن أن طبعتي نول وروك تختلفان فيما يتعلق بالتوزيع الطباعي ، فالفقرات في الأولى أطول منها في الثانية .

أمّا الاشارات إلى الأناجيل فقد وضعها هيجل نفسه .

د . د . روسكا

حياة يسوع (*)

(*) تتألف المخطوطة من تسع عشرة ورقة مرقمة بالأحرف اللاتينية من a إلى t ، وحسب التاريخ الذي وضعه هيجل على الصفحتين الأولى والأخيرة ، فإنها كتبت ما بين ٩ أيار و ٢٤ تموز من العام ١٧٩٥ (ملاحظة ن . نول) .

العقل الخالص المتجاوز كل حد ، هو الألوهة بذاتها . فتصميم العالم قد انتظم أساساً[1] بحسب هذا العقل . وهو الذي يدرِّب الانسان على معرفة مصيره والهدف المطلق لحياته . والحق أن الظلمة غالباً ما اكتنفته ، دون أن تتمكن من اخماده تماماً . فحفظ منه ، حتى في الظلمات ، بصيص من نور .

فمن اليهود قام يوحنا داعياً البشر أن يتنبهوا إلى هذه الكرامة التي تخصهم ، وإلى وجوب التفتيش عنها في ذواتهم وفي أناهم الحقيقية ، دون اعتبارها آتية من الخارج . فيجب ألّا يبحثوا عن تلك الكرامة في أصلهم ، أو في الجري وراء السعادة ، أو في الالتزام بخدمة البشر المرموقين ، بل في تنمية الشعلة الالهية المعطاة لهم والشاهدة بما يفوق الوصف ، على أنهم من الألوهة يتحدرون .

تطور العقل هو النبع الوحيد للحقيقة والسكينة ، النبع الذي لم يدَّع يوحنا مطلقاً أنه يمتلكه بطريقة حصرية أو كشيء نادر ، بل إن الناس جميعاً قادرون على تفجيره في ذواتهم .

ولكن فضل المسيح أكبر ، لأنه أصلح مبادىء البشر الفاسدة ،

---

(١) يوحنا : ١ .

وعرّفهم الخلقية الحقيقة وعبادة الله المستنيرة .

ولد يسوع[٢] في قرية بيت لحم اليهودية . وكان أبواه يوسف ومريم[٣] . أمّا يوسف فمتحدر من ذرية داود ، حسب عادة اليهود الذين يعلّقون أهمية كبرى على القوائم السلالية .

فلمّا بلغ يسوع يومه الثامن خُتِن حسب الشريعة اليهودية[٤] . ولا يعرف شيء عن تربيته ، سوى أنه أظهر في وقت مبكر علامات ذكاء نادر ، وأنه أبدى اهتماماً بالمسائل الدينية[٥] . ومثالاً على ذلك ، فقد نقل عنه أنه في أحد الأيام ، وكان قد بلغ الثانية عشرة من عمره ، قد أضاع أهله ، مما جعلهم في حزن كبير . لكنهم وجدوه في هيكل أورشليم ، بين الكهنة الذين أخِذوا بمعارفه ونضوجه الفائق نسبة إلى سنه .

أما المرحلة ذات الأهمية القصوى بالنسبة إلى تنشئته ، وهي الفترة الممتدة من حداثته حتى بلوغه الثلاثين من العمر ، لمّا أظهر نفسه كرجل كامل وكمعلم ، هذه الفترة التي تسترعي الانتباه الكلي ، فلم يحفظ عنها سوى المعطيات التالية :

لقد عرف يوحنا المشار إليه سابقاً[٦] ، والذي يُقال له المعمدان ، لأنه دأب على تعميد أولئك الذين سمعوا دعوته إلى أن يصيروا أفضل .

شعر يوحنا أنه مدعو لتنبيه مواطنيه إلى أهداف أسمى من المتعة السهلة ، وإلى طموحات أفضل من بعث المملكة اليهودية ببهائها القديم .

---

(٢) متى : ١ و ٢ .

(٣) كانوا يسكنون في الناصرة بالجليل ، ولكنهم اضطروا إلى الذهاب إلى بيت لحم ، مسقط رأس يوسف ، بسبب الاحصاء الذي أمر به أوغسطس (حاشية من هيجل) .

(٤) لوقا ٢ : ٢١ وما يليها .

(٥) لوقا ٢ : ٤١ .

(٦) لوقا ٣ ؛ متى ٣ .

وكان يسكن ويعلّم في العادة في مقاطعة منعزلة ، اما احتياجاته فكانت بسيطة جداً : فملابسه عبارة عن ثوب من وبر الإبل مع زنار من الجلد ، وقوته من الجراد ، الصالح للأكل في تلك النواحي ، ومن عسل النحل البري .

أمّا تعليمه فلم يُعرَف عنه سوى اكتفاؤه بدعوة البشر إلى تغيير طريقة عيشهم ، وإلى اثبات هذا التغيير بالأعمال . فكان يقول إن اليهود أخطأوا في تصورهم أن تحدرهم من فرع إبراهيم يجعلهم في غنى عن تعليمه من أجل استرضاء الاله . وكان يعمّد أولئك الذين أتوا إليه مظهرين توبتهم عن التصورات التي كانت لديهم فيما سبق من حياتهم . وكانت معموديته عملاً رمزياً يدل ، بمشابهته عمل التنظيف من الأوساخ ، على التخلي عن طريقة العيش الفاسدة .

وجاء يسوع بدوره إلى يوحنا واعتمد منه . ويبدو أن يوحنا لم يجد نفسه مستحقاً لأن يكون عنده تلاميذ مرتبطون به . فقد اكتشف الاستعدادات العظيمة التي سيظهرها يسوع لاحقاً ، فشهد له بأنه لا يحتاج إلى المعمودية ، ونصح الآخرين بأن يتجهوا نحو يسوع ويتعلموا منه . ثم أبدى فرحه[٧] لمّا علم أن يسوع قد وجد كثيراً من التلاميذ ، وعمّد الكثيرين (لم يكن يسوع هو الذي يعمّد بل أصدقاؤه) .

وأخيراً سقط يوحنا ضحية الكبرياء الجريح لهيرودوس أمير تلك النواحي ، ولامرأة . ذلك أنه لام علاقة هيرودوس بهيروديا امرأة أخيه ، فأُلقي في السجن .

لكن هيرودوس لم يجرؤ أن يقضي عليه نهائياً ، لأن الشعب كان يعدّه نبياً .

وفي أحد الأيام أقام هيرودوس حفلاً كبيراً في ذكرى مولده ، ورقصت

---

(٧) يوحنا ٣ : ٢٧ وما يليها .

ابنة هيروديا هذه ببراعة ، فأعجبت هيرودوس حتى أنه أقسم أن يعطيها ما تتمناه ، ولو نصف مملكته . وكانت أمها الجريحة الكبرياء قد اضطرت حتى ذلك الوقت إلى حبس انتقامها عن يوحنا ، فلقّنت ابنتها أن تطلب موته .

لكن هيرودوس لم يجرؤ على اقناع نفسه ، أو الشهادة أمام مدعويه أن قسمه لا يشمل ارتكاب جريمة ، فقدّم للصبية رأس يوحنا على طبق ، فأعطته لأمها . أمّا الجسد فدفنه تلاميذه .

ولولا هذه المعطيات عن تلك الفترة من حياة يسوع ، لما كادت تُنقل إلى اللاحقة أية سمات لنمو روحه .

وفي ساعات تأمله في البرية[٨] ، تساءل يوماً ما إذا كان يرغب في السعي ، عن طريق دراسة الطبيعة أو بالتواطؤ مع الأرواح العلوية ، إلى بلوغ حد تحويل العناصر غير الكريمة إلى عناصر كريمة يستعملها البشر مباشرة - كتحويل الحجارة إلى خبز - أو السعي بشكل عام إلى أن يصبح اكثر استقلالاً بالنسبة إلى الطبيعة (أن يرمي نفسه إلى الأسفل)[٩] . لكنه أبعد تلك الفكرة ، آخذاً بعين الاعتبار الحدود التي وضعتها الطبيعة لسلطة الانسان عليها ، وأن طموح الانسان إلى مثل هذه السلطة أحطّ من كرامته كانسان . لأنه يملك في ذاته قوة أسمى كثيراً من الطبيعة ، وفي تنميتها واصلاحها يكمن الهدف الحقيقي لحياته .

وفي مرة أخرى جال في مخيلته كل ما يعتبره البشر عظيماً وجديراً بأن يكون غاية نشاط الانسان : كأن يكون معلماً وقائداً للملايين ، وأن يجعل نصف العالم يلهج به ، أو يرى ألوف البشر متعلقين بإرادته ونزواته ، أو أن

---

(٨) لوقا ٤ ؛ متى ٤ .

(٩) يلمح هيجل هنا إلى العرض الذي قدمه الشيطان ليسوع بأن يصعد إلى سطح هيكل أورشليم وأن يرمي نفسه الخ . . . (لوقا ٤ : ٩ - ١٢ ؛ متى ٤ : ٥ - ٧) .

يعيش في الملذات السعيدة الحاصلة من اشباع رغباته[١٠] - أي كل ما يمكن أن يرضي الخيلاء أو الحواس .

ولكنه لمّا أغرق في التفكير بحثاً عن الشروط التي تسمح وحدها بحيازة ذلك كله ، حتى ولو استعملت جمعاء لخير البشر ، اعني الانحناء تحت نير الشهوات ، الشهوات الذاتية وشهوات الآخرين ونسيان الكرامة العظمى والتخلي عن احترام الذات ، رفض بلا تردد ما ساوره من فكر بتبني تلك الرغبات قاصداً أن يبقى إلى الأبد[١١] اميناً لما نقش في قلبه بطريقة لا تمحى ، وعازماً على أن يحترم ناموس الخلقية الأزلي وحده ، وأن لا يؤثر على إرادته المقدسة شيء ما خلا هذا الناموس .

ولم يبدأ يسوع تعليمه العلني إلاّ في الثلاثين من عمره . ويبدو أن تعليمه كان في البداية وقفاً على القلة . ولم يلبث أن انضم « إليه بعض الأصدقاء »[١٢] ، منهم ميلاً إلى تعليمه ومنهم استجابة لدعوته . وكان يصطحبهم معه دائماً ، ويسعى من خلال قدوته الذاتية وتعليمه إلى اصلاح أنفسهم المحدودة بالتعصب والكبرياء القومية ، وإلى أن يبعث فيهم روحه[١٣] التي لا تقيم وزناً إلاّ للفضيلة ، غير المرتبطة بأية قومية خاصة أو مؤسسات وضعية .

أقام يسوع غالباً في الجليل ، وبالتحديد في كفرناحوم . ومن هناك كان ينطلق عادة في زيارات[١٤] إلى أورشليم لمناسبة الأعياد اليهودية

---

(١٠) في طبعة نول : (رغباته) ؛ في طبعة روك : (رغبات خالصة) . إلاّ أن معنى العبارة يرجّح أن يكون نول هو الذي نقل الكلمة بدقة .

(١١) تعبير (إلى الأبد) غير موجود في نص روك .

(١٢) (يوحنا ١ : ٣٥ - ٥١) : الكلمات الموجودة بين مزدوجين أضافها نول اكمالاً لنص هيجل الناقص . أمّا روك فقد أضاف هنا (تلاميذ كثيرون) .

(١٣) عند روك : « . . . وبعث فيهم روحه . . . » .

(١٤) نول : (رحلة) ؛ روك : (رحلات) .

الكبرى ، وخاصة ابّان الفصح السنوي .

وقد لفت إليه الأنظار بالعمل المؤثر الذي قام به في أول زيارة له إلى أورشليم[١٥] ، بعد أن قدّم نفسه للشعب كمعلم . فقد دخل الهيكل ، حيث يجتمع سائر سكان اليهودية ، مرتفعين فوق الاهتمامات الحياتية الحقيرة ومقتربين من الله بعبادة مشتركة ، فوجد فيه جماعة من صغار الباعة ، الذين يعتمدون على تقوى اليهود ، فيبيعونهم سائر السلع التي يحتاجها اليهودي من أجل قرابينه . وقد جعلوا تجارتهم داخل الهيكل بسبب الحشد القادم من سائر أنحاء اليهودية ابّان الأعياد . فامتلأ يسوع بالسخط من هذه الروح المركنتيلية وطرد الباعة من الهيكل .

التقى يسوع بكثير من الأشخاص الذين قبلوا تعليمه . وأدرك تمام الادراك تمسك اليهود بأوهامهم القومية المتجذّرة ، وقلة ادراكهم للأمور السامية ، فلم ينشىء معهم علاقات حميمة ولم يأمل في قناعتهم : أي أنه لم يعتبر قناعتهم ذات مستوى يسمح بأن يبني عليها أموراً عظيمة . وقد ترفّع عن تفاهة الظن بأن اذعان الكثير من الناس لتعليمه يشرّفه ، وترفّعَ عن ضعف الذين تشتد قناعتهم بشهادة الآخرين .

فإنه لم يكن بحاجة إلى أية موافقة أو أية سلطة ليؤمن بالعقل .

ويبدو أن الانطباع الذي تركه يسوع هنا[١٦] لم ينجم عنه سوى تأثير بسيط على معلمي الشعب والأحبار ، أو أن هؤلاء كانوا يتظاهرون باحتقاره ، أو بالنظر إليه من عل . إلاّ أن أحدهم ويُدعي نيقود يموس ، أحسّ أنه مدفوع إلى الدخول في علاقة أكثر خصوصية مع يسوع ، وأن يتعلّم من فمه أين تكمن الجدّة والتمييز في مذهبه ، وما إذا كان جديراً بالاهتمام . فجاء إليه في ظلمة الليل ، حتى لا يعرّض نفسه للحقد أو للسخرية . وقال :

(١٥) يوحنا ٢ : ١٣ وما يليها .

(١٦) يوحنا ٣ .

« لقد جئت بدوري حتى أتعلم منك . فكل ما سمعته عنك يثبت كونك مرسلاً من لدن الله ، وأن الله مقيم فيك ، وأنك أتيت من السماء » .

فأجابه يسوع : « الحق أن مَنْ لا يكون أصله في السماء ، ومَنْ لا تقيم فيه قوة إلهية ، ليس من سكان ملكوت الله على الاطلاق » .

فأجاب نيقود يموس : « ولكن كيف يسع الانسان أن يكفر بنوازعه الطبيعية ، وكيف يمكنه أن يكتسب ميولاً سامية ؟ يجب أن يعود إلى بطن أمه ويولد مختلفاً تماماً ، وكأنه كائن من جنس آخر » .

فأجابه يسوع : « الانسان ، بما هو انسان ، ليس كائناً شهوانياً وحسب . وطبيعته ليست محصورة في الميول نحو اللذة وحدها . ففيه الروح أيضاً ، وكذلك جذوة من الكائن الالهي . وما ترثه جميع الكائنات العاقلة هو في متناول الانسان . فكما أنك تسمع صوت الريح وتتحقق من هزيزها ، ولكنك لا تستطيع شيئاً حيالها ، ولا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب ، فإن تلك القوة الحرة والثابتة تنكشف في ذاتك بطريقة لا تقاوم . أمّا الطريقة التي ترتبط بها تلك القوة بسائر مشاعر الانسان المعرضة للتغيير ، وبأية طريقة تؤكد سيادتها على ملكات الحس ، فهذا ما نجهله » .

واعترف نيقوديموس أنه يجهل هذه المفاهيم . فقال يسوع :

« أنت معلم في اسرائيل ، فكيف لا تفهم ما أقول ؟ أمّا أنا فاعتقادي بها مثل تأكدي مما أراه وأسمعه . ولكن كيف أستطيع أن ألزمك بالايمان بشهادتي ، إذا كنت لا تعي الشهادة الداخلية لروحك ، أي ذلك الصوت السماوي ؟ ما من شيء غير هذا الصوت ، ونبعه في السماء ، يمكن أن يطلعك على مقتضى العقل السامي . والحال أن السلام والعظمة الحقيقية وكرامة الانسان لا يمكن أن تجدها إلاّ في الايمان بهذا العقل وطاعته .

« ذلك أن الألوهة[١٧] قد ميّزت الانسان عن سائر الطبيعة ، بأن

(١٧) عند روك : « لأن الله . . . » .

نفحت فيه نفحة من جوهرها فوهبته العقل . ولا يستطيع الانسان أن يحقق مصيره السامي من دون الايمان به . فالعقل لا يدين النوازع الطبيعية ولكنه يوجهها ويشرِّفها .

« مَنْ لا يطيع العقل فقد أدان نفسه بنفسه ، لأنه أنكر ذلك النور ، ولم يُغَذِّه في داخله ، وهكذا يشهد بأعماله من أي روح وُلد ؛ إنه يتملّص من بريق العقل الذي يأمر بالخلقية كواجب ، لأن أعماله الشريرة تقاوم ذلك النور الذي سيملأه بالخزي واحتقار الذات والندم . وعلى العكس من ذلك ، فالذي يتصرّف باستقامة وصدق يقترب بسرور من محكمة العقل ، دون أن يخشى توبيخاته أو المعرفة الذاتية التي يزوِّده بها ، ولا يكون بحاجة إلى اخفاء أعماله ، لأنها تشهد على الروح الذي يحييه ، على روح العالم العقلي ، على روح الألوهة » .

ولمّا أُبلغ يسوع أن العدد الكبير من الأشخاص الذين قبلوا تعليمه أخذ يسترعي انتباه الفريسيين ، غادر أورشليم[18] مجدداً وانطلق إلى الجليل . وكانت طريقه تمر عبر مدينة السامرة . وكان قد أرسل تلاميذه إليها ليبتاعوا طعاماً ، وفي غيابهم توقف عند بئر يبدو أنها كانت تخص يعقوب ، أحد اجداد الشعب اليهودي . فصادف هناك امرأة سامرية وطلب منها أن تعطيه بعض الماء ليشرب . فتحيّرت المرأة كيف أنه ، وهو اليهودي ، يطلب أن يشرب من سامرية ، ذلك أن الشعبين كانا يتبادلان ضغينة دينية وقومية ، منعتهما من اقامة أية علاقة بينهما . فأجابها يسوع :

« لو كنت تعرفين مبادئي ، لما حكمت عليّ بحسب القاعدة الشائعة بين اليهود ، ولما كابدتِ في ذاتكِ أي تردد في أن تطلبيها مني ، ولكنتِ فتحت أمامك نبعاً آخر للماء الحي الذي يطفىء عطشك إذا غرفت منه ، فهو الماء الذي ينبجس منه نهر يقود إلى الحياة الأبدية » .

(١٨) يوحنا ٤ .

فأجابت السامرية : « أرى أنك رجل حكيم . وإني أتجاسر فأطلب منك أن تطلعني على أهم خلاف بين ديننا ودينك . لقد أقام آباؤنا عبادتهم على جبل جرِّزيم ، أما أنتم فتؤكدون أن أورشليم هي المكان الوحيد الذي يكرَّم فيه العليّ » .

فأجابها يسوع : « صدقيني أيتها المرأة ، سيأتي زمن لن تقيموا فيه أية عبادة ، لا في جبل جرِّزيم ولا في أورشليم . سيأتي زمن لن يؤمن فيه أحد أن عبادة الله تقتصر على أعمال محددة سلفاً ، أو أنها وقف على مكان معيّن . سيأتي زمن - بل أتى الآن - يكرِّمُ فيه عبادُ الله الحقيقيون الأبَ الكليّ بالروح الحقيقية للدين ، لأنه يريد مثل هؤلاء العباد الذين يهيمن على أرواحهم العقل الأوحد وكماله : أي الناموس الخلقي . وعلى هذا الناموس وحده يجب أن تؤسس عبادة الله ! » .

وكان للقصة التي روتها المرأة لمواطنيها عن يسوع وحوارها معه ، أثر كبير على رأيهم فيه ، فجاء كثير من السامريين ليسمعوا تعليمه .

وفيما يسوع يحادثهم عاد تلاميذه وقدموا له طعاماً .

فأجابهم : « دعوا هذا ، فأنا لا أفكر في غذاء الجسد . مهمتي هي صنع مشيئة الله وتحقيق اصلاح البشر . أفكاركم متجهة نحو الطعام ، ونحو الحصاد القريب . ولكن افتحوا أعينكم جيداً[19] ، وانظروا حصاد الجنس البشري الذي نضج ! عجّلوا في تنمية هذا البذار في الحقول التي لم تزرعوها ! إن بذرة الخير التي وضعتها الطبيعة في قلب الانسان أخذت تنمو بذاتها ، هنا وهناك ، أما عملكم فهو العناية بهذه الأزهار والانتظار ، ثم مباشرة العمل الذي بدأته الطبيعة وتعجيل ايناع البذار » .

وأقام يسوع يومين عند السامريين نزولاً عند طلبهم ، فأتاح لهم

(١٩) عند نول : (افتحوا) ؛ عند روك : (فرِّحوا) .

الفرصة ليتحققوا بخبرتهم الخاصة من التأثير العميق الذي تركه فيهم حديث المرأة عنه .

ثم مضى بعد انقضاء اليومين إلى الجليل[٢٠] . وفي طريقه ، كان ينصح الناس بأن يغيّروا طريقة عيشهم وأن يصبحوا أخياراً[٢١] . وسعى إلى إيقاظهم من غفلتهم ومن آمالهم العقيمة والخاملة في أن ماسيّا سيظهر قريباً فيسترجع عظمة الديانة اليهودية والدولة .

وكان يقول لهم : « باشروا اصلاح أنفسكم بأيديكم ولا تتكلوا على أحد سواكم ! ضعوا أمامكم هدفاً أسمى من أن تكونوا مجدداً كما كان اليهود الأقدمون ! كونوا أخياراً ! فهذا ما يقرِّبكم من ملكوت الله » .

هكذا علم يسوع في كل مكان[٢٢] ، في كفرناحوم الواقعة على ضفاف بحيرة طبريا ، وفي الأماكن العامة ، وفي معابد اليهود . وبينما هو يباحث مواطنيه أبناء الناصرة ، القرية التي ولد فيها ، في موضوع الكتب المقدسة ، قيل عنه : « أوليس هذا ابن يوسف الذي ولد ونشأ بيننا ؟ » إن رأي اليهود المسبق بأن المخلِّص الذي ينتظرونه يجب أن يكون من أصل رفيع ، وأن يظهر بمجد ، كان لا يقاوم . وفي النهاية طرده مواطنوه من المدينة ، فتذكر المثل القائل : « لا كرامة لنبي في وطنه »[٢٣] .

وهنا دعا[٢٤] بطرس واندراوس وكذلك يعقوب ويوحنا إلى أن يتبعوه . فوجدهم منصرفين إلى الصيد وهو مهنتهم ، فقال لبطرس :

« دع السمك ، فسأجعلك صياداً للبشر ! » .

---

(٢٠) يوحنا ٤ : ٤٣ ؛ متى ٤ : ١٢ وما يليها ؛ لوقا ٤ : ١٤ .
(٢١) متى ٤ : ١٧ .
(٢٢) لوقا ٤ : ١٦ - ٣٢ .
(٢٣) الترجمة الحرفية : « أقل مكان يكرَّم فيه النبي هو وطنه » .
(٢٤) متى ٤ : ١٨ - ٢٢ .

وأخذ عدد الذين يتبعونه يزداد[٢٥] ، ورافقه عدد كبير من سكان المدن والقرى . وأمام هذا الجمهور الغفير صعد إلى الجبل ، وألقى ، في هذه المرحلة من حياته العظة التالية :

« طوبى[٢٦] للمستضعفين والفقراء ، فإن لهم ملكوت السموات .

« طوبى للمحزونين ، فإنهم يعزَّون .

« طوبى للودعاء ، فإنهم ينعمون بالسلام .

« طوبى للراغبين في البر بقوة ، فإن رغبتهم تتحقق .

« طوبى للشفوقين ، فإنهم يرحمون .

« طوبى لانقياء القلوب ، فإنهم يقتربون من القدوس .

« طوبى لمحبي السلام ، فإنهم أبناء الله يدعون[٢٧] .

« طوبى للمضطهدين من أجل البر ، والمكابدين في سبيله الشتائم والافتراءات .

« افرحوا وتهللوا فأنتم من سكان ملكوت السموات !

« أمّا عنكم يا أصدقائي فأريد أن أقول : أنتم ملح الأرض ، ولكن إذا فسد الملح فبماذا يملَّح ؟ إنه يضيع شيئاً فشيئاً في المواد العادية الأخرى . إذا ماتت قوة الخير فيكم ، فإن أعمالكم ستختفي مع سائر الجهود التافهة وبؤس البشر .

« أثبتوا أنكم نور العالم ، ولتكنْ أعمالكم الصالحة نوراً للبشر ،

---

(٢٥) متى ٤ : ٢٥ .
(٢٦) متى ٥ : ٢٥ .
(٢٧) عند نول : (السلام) ؛ عند روك : (الأطفال) . فنص روك يترجم إذاً كما يلي : « طوبى لمحبي الأطفال ، فإنهم أبناء الله يدعون » .

فتلهبَ ما فيهم من خير ، فيتعلموا كيف يرفعون أبصارهم نحو الأهداف السامية ونحو الآب الذي في السماء !

« لا تظنوا أنني جئت بالصدفة لأكرز ببطلان الشرائع ! ما جئت لأبطل الخاصيّة الالزامية لهذه الشرائع ، بل لأجعلها كاملة ، فأبعث الروح في هذا الهيكل المائت . قد تزول الأرض والسماء ، ولكن وصايا الناموس الخلقي وواجب الخضوع له لا يزولان ! مَنْ يحلُّ نفسه أو سواه من واجب اطاعة تلك الوصايا لا يستحق اسم مواطن ملكوت الله . أمّا الذي يتممها في نفسه ، ويعلم الآخرين احترامها ، فذاك يكون معتبراً في ملكوت السموات .

« ما أُضيفه من أجل انجاز مذهب الشرائع بكامله هو الشرط الأساسي : لا تكتفوا بمراعاة نص الشرائع ، الذي يمكن أن يشكل وحده مادة الأحكام البشرية ـ كما يفعل الفريسيون ومثقفو شعبكم ـ بل تصرّفوا بحسب روح الشريعة ، باحترام الواجب .

« سأوضح لكم ذلك بأمثلة من ناموسكم . فاحدى الوصايا القديمة تقول : « لا تقتلْ ، فإن مَنْ يقتل يستوجب المقاضاة » . أمّا أنا فأقول لكم : ليس موت الآخرين بالتحديد هو الذي يسبب مسؤولية الجريمة . صحيح أن الذي يسيء التصرف نحو أخيه لا يمكن أن تعاقبه أية محكمة بشرية . ولكنه ، حسب روح الشريعة ، مسؤول مثل المجرم .

« لقد أمرتكم الشريعة منذ أجيال طويلة أن تقدموا الذبائح في بعض المناسبات . فإذا اقتربتم من المذبح وتذكرتم أنكم قد اسأتم إلى رجل فآلمتموه ، فاتركوا تقدمتكم أمام المذبح واذهبوا إلى أخيكم طالبين أن يمدّ لكم يد المصالحة ، ثم ارجعوا إلى المذبح بعد أن تصيروا مقبولين من الله .

« تقول إحدى وصاياكم أيضاً : « لا تزن » . أمّا أنا فأقول لكم إن الخطيئة لا تكمن في الفعل الجسدي وحده ، ولكن الشهوة عموماً تظهر أن القلب قد تدنّس . مهما كان النازع طبيعياً ومستحباً ، فقاوموه بشدة . وازدروه قبل أن يجعلكم تنجرفون بعيداً عن حدود البر ، وقبل أن يجعلكم تنقضون مبادئكم مبدأً اثر مبدأ ، وتتركونها تفسد . افعلوا هذا ولو كنتم بارضاء نوازعكم لا تنقضون حرفاً من الناموس .

« ثمة شريعة قديمة تقول : « لا تحلف بالزور » . ولكن بشكل عام ، إذا كنتم تحترمون أنفسكم ، فإن كل تأكيد وكل وعد تقطعونه بكلمة « نعم » أو « لا » وحدها ، يجب أن يكون صحيحاً ومقدساً وغير منتقض ، مثل اليمين التي تحلفونها باسم الإله . لأنكم يجب ألاّ تقولوا « نعم » أو « لا » إلا إذا كنتم على قناعة بأنها تصلح دستوراً أزلياً للعمل .

« وثمة شريعة مدنية تقول : « العين بالعين والسن بالسن » . ولكن إيّاكم أن تجعلوا من هذه الصيغة القانونية مقياساً لحياتكم الخاصة ، إذا تعلق الأمر بالرد على شتيمة أو باظهار مودة . لا تبالوا بامتلاك الثروات ، واتركوا التوق إلى الانتقام ، واهملوا مصالحكم الخاصة ، حتى المشروعة منها ، من أجل العواطف النبيلة كالرأفة والصلاح .

« لا شك أنه قد فرض عليكم أن تحبوا أصدقاءكم وأمتكم . ولكن إلى جانب هذا فقد سُمح لكم أن تكرهوا أعداءكم والغرباء . أمّا أنا فأقول لكم : احترموا الانسانية ، حتى في اعدائكم . وإذا لم يسعكم أن تحبوهم ، فتمنوا الخير ، على الأقل ، لهؤلاء الذين يلعنونكم ، واصنعوا البر للذين يكرهونكم . تشفعوا من أجل الذين يغتابونكم والساعين إلى إحزانكم .

« وهكذا تصيرون أبناء حقيقيين للآب الذي في السماء ومشابهين لمَنْ لا حدَّ لصلاحه ، حتى أنه يطلع شمسه على الأشرار والأخيار ، وينزل غيثه على الأبرار والفجّار . فإن احببتم مَنْ يحبكم ، وصنعتم الخير للمحسنين إليكم ، وإذا اقرضتم على أمل أن يعود قرضكم كما هو[28] ، فأية قيمة لعملكم ؟ إنها

(٢٨) لوقا ٦ : ٣٥ .

أحاسيس طبيعية ، ولا يتنصّل منها حتى الأشرار . فبهذا لا تكونون قد فعلتم شيئاً للواجب . فلتكن القداسة هدفكم كما أن الإله قدّوس .

« الصدقة والرحمة(٢٩) فضيلتان جديرتان بالاحترام ، ولكن إذا لم تتم ممارستها كالوصايا السابقة بحسب روح الفضيلة ، بل من أجل نيل الحظوة في أعين الناس ، فإنها تفقدان كل قيمة . فإذا أردتم أن تتصدّقوا ، فلا يُنفخ أمامكم في البوق ، كما يفعل المراؤون في الشوارع وفوق المنابر أو على صفحات الصحف(٣٠) ليعظمهم الناس . أمّا أنتم فتصدّقوا في الخفية ، حتى لا تعلم شمالكم ما تفعله يمينكم .

« إن مكافأتكم ، إذا كنتم بحاجة إلى مكافأة بغية تشجيعكم ، هي الفكر المطمئن إلى أنكم قد تصرفتم حسناً ، والاعتقاد أن تأثير عملكم ـ الذي لا يعرف كثير من الناس مَنْ قام به ، والمتمثل بأمور صغيرة ، كالمساعدة التي تحملونها إلى مصاب والعزاء الذي تقدمونه إلى بائس ـ الاعتقاد أن تأثير عملكم غني بالنتائج النافعة من أجل الخلود .

« وإذا صليتم فلا تفعلوا ذلك على طريقة المرائين الذين يركعون في المعابد ، ويضمون أيديهم في الشوارع ، أو الذين يزعجون جيرانهم بتراتيلهم ، حتى يراهم الناس . الحق أقول لكم إن صلاتهم لا تحمل أي ثمر . أمّا أنتم فلتكن صلاتكم في الخلاء أو في غرفتكم ، لأن الصلاة يجب أن تكون تعالي النفس فوق الأهداف الحقيرة التي يطلبها البشر ، وفوق الشهوات التي تتدافعهم . يجب أن ترفعكم الصلاة ، بالفكر ، إلى الله القدوس الذي يذكركم بالشريعة المطبوعة في قلوبكم ، وأن تملأكم باحترام تلك الشريعة ، فلا تؤثر فيكم النوازع على اختلافها .

« لا تصوغوا جوهر صلاتكم بكلمات وجمل كثيرة ، كما يفعل

---

(٢٩) متى ٦ .

(٣٠) من المؤكد أن هيجل نسي أن يسوع هو الذي يتكلم .

المستسلمون للخرافات الذين يظنون أن الكلمات الكثيرة تنيلهم حظوة عند الله ، أو تؤثر عليه وعلى تصميم حكمته الأزلية . لا تتشبهوا بهؤلاء ! فأبوكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه . الحاجات الطبيعية والرغبات التي توحي بها النوازع لا يمكن أن تكون مادة لصلاتكم . فكيف يسعكم أن تعرفوا ما إذا كان ارضاء هذه النوازع يدخل في التصميم الخلقي الذي وضعه الله القدوس ؟

« أمّا إذا صليتم فليحرّككم فكر الله حتى تصمموا في حضرته على تكريس حياتكم للفضيلة . وربّما يمكن تحديد روح الصلاة بالكلمات التالية :

« يا أبا البشر الذي تخضع له كل السموات ، إنك القدوس الوحيد . فلتكن أنت الصورة الماثلة في روحنا ، حتى نسعى إلى الاقتراب منها ! فليأتِ ملكوتك في اليوم الذي يكون جميع المتحلين بالعقل قد جعلوا من شريعته وحدها قاعدة أعمالهم !

« وبهذه الفكرة تُخضع شيئاً فشيئاً كل نوازع الطبيعة وصراخها ! كيف يمكننا أن ننصّب أنفسنا قضاة متزمتين أو متعطشين للثأر من إخوتنا ونحن نحسّ بنقصنا بالنسبة إلى مشيئتك المقدسة ؟ نريد ألّا نعمل إلّا على أنفسنا حتى نجعل قلوبنا أفضل ، ونشرّف دوافع أعمالنا ، ونطهّر عواطفنا شيئاً فشيئاً ، حتى نصبح أكثر فأكثر مشابهين لك ، أنت الوحيد صاحب القداسة والمجد اللامتناهيين .

« أنتم تمتلكون مقياساً لقياس تقدمكم في الكمال الخلقي : إنه مدى تقدمكم في المحبة الأخوية وفي تصميمكم على التسامح . لا تكتنزوا على هذه الأرض كنوزاً لا تستطيعون الادعاء أنها ثرواتكم الخاصة . فالذهب والفضة والجمال أشياء معرضة للتلف أو لتغيّر الظروف ، حتى إلى الصدأ وإلى أن تبيدها الحشرات ، أو لخطر السرقة . فلا تكن مثل هذه الكنوز هي التي تملأ نفسكم .

« اكنزوا في داخلكم كنزاً لا يفنى ، أي غنى في الخلقية . فهذا هو الكنز الوحيد الذي تستطيعون القول إنه خاصتكم ، بكل معنى الكلمة ، لأنه جزء من « ذاتكم » الحميمة . ولا يقوى عليه شيء ، لا متطلبات الطبيعة ، ولا إرادة البشر الشريرة ولا حتى الموت نفسه !

« وكما أن العين السليمة تُستخدم سراجاً للجسد ، فتقوده في كل تحركاته . فإذا أُصيبت بالخلل يفقد الجسم مهارته في كل ما يقوم به ، فكذلك عندما يخبو نور النفس ، أي العقل ، فمن أين تستطيع الميول والنزعات أن تأخذ وجهتها الصحيحة ؟

« وكما أن أحداً لا يستطيع أن يعمل لسيدين بالحماس نفسه ، فإن خدمة الله والعقل لا يمكن أن تتوافق مع خدمة الحواس . لأن كلاً منهما يتنافى مع الآخر . أو أنه سينشأ تقلب خطير وعاجز بينهما . لذا أتوجه إليكم بهذه النصيحة :

« تحرروا من الحاجات المستمرة المتعلقة بالمأكل والمشرب والملبس ، تلك الحاجات التي تشكل المحور الكامل لجهود معظم البشر ، والتي تبدو بسبب الاهتمام الذي يعلّقه هؤلاء عليها ، وكأنها هي التي تحدد مصيرهم ، أو أنها الغاية النهائية لوجودهم .

« أفلا توجد في النفس البشرية حاجة أسمى من الغذاء واللباس ؟ انظروا إذنْ إلى طيور السماء ! إنها حرة من كل حاجة ، فلا تزرع ولا تحصد ولا تخزن في الأهراء ، ولكن أبا الطبيعة يتدبّر غذاءها . أوليس هدفكم أسمى من هدفها ؟ وهل ألزمتكم الطبيعة أن تستخدموا قواكم النبيلة من أجل اشباع حاجات معدتكم وحسب ؟ إنكم تبذلون جهداً كبيراً في تزيين الوجه الذي منحتكم اياه الطبيعة وتجميله . فهل تقدر خيلاؤكم أن تزيد مقدار اصبع إلى طول قامتكم ، رغم العناية والمثابرة اللتين تبذلونها من أجلها . أو انظروا إلى زهور الحقل التي تزهر اليوم بروعة ، ثم تتحول في الغد إلى علف . هل استطاع سليمان ، في كل بهائه ، أن يحاكي جمال

الطبيعة الحر ؟ أبعدوا قليلاً الحاجات الحقيرة كاللباس والقوت ! وليكن الهدف الأسمى لقواكم ملكوتَ الله والخلقية ؛ فبهذا وحده تستحقون أن تكونوا من سكانه . أمّا الباقي فيعطى لكم علاوة على ذلك .

« لا تكونوا قساة[٣١] في أحكامكم على الآخرين . لأنه سيكال لكم بالمكيال الذي به تكيلون ، ويمكن ألّا يكون دائماً لمصلحتكم . لماذا تنظرون بعين الرضى إلى الشوكة الصغيرة في عين سواكم ، ولا تكتشفون الخشبة التي في أعينكم ؟ ولماذا تقولون للآخر : « توقفْ أيها الصديق ودعني أنزع الشوكة من عينك ! » ؟ أيها المرائي ، انزع الخشبة من عينك أولاً ، وبعد ذلك التفت إلى الشوكة ! اعمل على اصلاح نفسك قبل أن ترغب في اصلاح الآخرين ! كيف يستطيع الأعمى أن يقود أعمى آخر على الطريق ؟ أفلا يقعان كلاهما في الحفرة ؟ وهل يستطيع المعلم أن يجعل تلميذه ماهراً إذا لم يكن هو كذلك[٣٢] ؟ إذا أردتم أن تجعلوا الآخرين أخياراً ، فلا تتوجهوا إلى أيٍّ كان وبطريقة متهورة ودون تمييز . لا تعطوا الكلاب ما هو مقدس (الخواتم) ولا تطرحوا لؤلؤكم أمام الخنازير ، لأنها ستكتفي بأن تدوسها ثم ترميكم أرضاً .

« اقتربوا من البشر واطلبوا منهم ، وسيعطونكم في الغالب . فتشوا عن الناحية التي تستطيعون بها الاقتراب منهم ، فإذا وجدتموها ، اقرعوا بلطف وستجدون المدخل .

« تصرّفوا حسب مبدأ[٣٣] يقضي بأن تستطيعوا التمني لو يطبق كقاعدة عامة بين البشر كما يطبق عليكم . فتلك هي القاعدة الأساسية للأخلاق ، ومحتوى كل التشريعات والكتب المقدسة عند كافة الشعوب . ادخلوا من

---

(٣١) متى ٧ .

(٣٢) لوقا ٦ : ٤٠ .

(٣٣) القاعدة العامة للحكمة هي : « افعلوا للناس ما تريدون أن يفعلوه لكم » - قاعدة الخلقية . (جملة شطبها هيجل . وهي غير موجودة عند روك) .

باب الحقوق هذا إلى هيكل الفضيلة ! ولا ريب أن هذا الباب ضيق ، والطريق المؤدي إليه مليء بالأخطار ومرافقيكم سيكونون قليلين .

« مسكن الشر والهلاك ذو باب واسع وطريق سويّ ، وكثيرون هم الذين يرغبون فيه . احذروا في طريقكم من المعلمين الكَذَبة ، فإنهم يقتربون منكم بمظهر الحملان وفي داخلهم شهوات الذئاب الفتاكة . ولكن لديكم علامة أكيدة لكشف مراءاتهم : أحكموا عليهم بحسب أعمالهم ! لأنه لا يجتنى من الشوك عنب ولا من العليق تين ! كل شجرة طيبة تحمل ثماراً طيبة ، وكل شجرة رديئة ثماراً رديئة . وليس للشجرة الطيبة أن تحمل ثماراً رديئة ولا للشجرة الرديئة أن تحمل ثماراً طيبة[٣٤] .

« إذنْ فمن ثمارهم تعرفونهم . فمن غنى القلب الخيّر يتدفق الخير ، ومن غزارة القلب الشرير يتدفق الشر[٣٥] . لا تدعوا كلمات التقى والورع تستهويكم . فليس مَنْ يتضرّع إلى الله ويوجه إليه الصلوات ويقدم إليه التقدمات ، يكون عضواً في ملكوته ، بل الذي يعمل بمشيئته التي يهتدي إليها الانسان بواسطة ناموس عقله .

« كثيرون هم الذين سيقفون في اليوم الأخير أمام قاضي العالم ، ويقولون : « ربنا ، ربنا ، أولسنا باسمك قد صنعنا المعجزات ، وطردنا الأرواح الشريرة ، وقمنا بالأمور العظيمة ؟ أولم نمجّدك بهذه الأعمال ، ونشكرك عليها كأنها أعمالك الخاصة ؟ وسيجيبهم حينئذٍ :

« وما أهمية معجزاتكم[٣٦] أو نبوءاتكم أو أعمالكم العظيمة ! وهل يتعلق الأمر بهذا ؟ الله لن يقرّ بأنكم من خاصته . لستم من ساكني ملكوته .

---

(٣٤) لوقا ٦ : ٤٣ .

(٣٥) لوقا ٦ : ٤٥ . عند نول (يتدفق) ؛ عند روك : (يعظم أو ينتفخ) .

(٣٦) نول : (معجزاتكم) ؛ روك : (المعجزات وحدها) . أعتقد أن نول على حق ، لأنه عبّر بأمانة عن فكرة هيجل ، وهي التالية : « ليست للمعجزات أية أهمية . وحسب نص روك يجب القول : « المعجزات وحدها ليست لها قيمة » .

أنتم صانعو معجزات وأنبياء وخالقو أعمال عظيمة . أنتم تصنعون الشر ، والخلقية هي المقياس الوحيد لما هو مقبول عند الله .

« فمثَل مَنْ يسمع هذه المبادىء فيتبناها كمثل رجل عاقل بنى بيته على الصخر . فلما أتت العاصفة ، وسالت عليه الأودية بصخب ، وعصفت الرياح وثارت على ذلك البيت لم يسقط ، لأن أساسه على الصخر . ومثل مَنْ يسمع هذا التعليم ولا يعمل به كمثل رجل جاهل بنى بيته على الرمل ، فلما أتت السيول واندفعت نحوه اسقطته ، وكان سقوطه عظيماً ، لأن أساسه ضعيف ! » .

تركت هذه الأحاديث تأثيراً كبيراً على سامعي يسوع ، لأنه كلمهم بقوة ونبرة ، وكانت المواضيع التي تطرق إليها مما يسترعي أقصى اهتمام البشرية .

ومن ذلك الحين[٣٧] ازداد عدد الذين يتجمعون بغية الاستماع إلى يسوع . ولكن انتباه الفريسيين والأحبار اليهود ازداد أيضاً . وكان يهرع في الغالب إلى الخلاء ، هرباً من صخب تلك الجموع وملاحقة الفريسيين والكهنة .

وأثناء اقامته في الجليل مرّ يوماً من أمام بيت الجباية فرأى فيه عشاراً اسمه متى[٣٨] ، فدعاه إلى أن يكون أحد أتباعه ، فقبل ذلك ثم شرّفه فيما بعد بصداقته الحميمة ، فجلس إلى مائدته وكان معظم الجالسين من الموظفين أمثاله . وكانت لفظة « عشار » مساوية للفظة « خاطىء » عند اليهود ، فأظهر الفريسيون لأصدقاء يسوع دهشتهم لمخالطته العشارين .

وسمعهم يسوع فقال لهم :

« ليس الأصحاء بمحتاجين إلى طبيب بل المرضى وحدهم . تأملوا

---

(٣٧) متى ٨ ؛ مرقس ٢ : ١٣ .

(٣٨) من المحتمل أن هذه القصة نفسها وردت عند لوقا (٧ : ٢٥) ومرقس (٢ : ١٤) سوى أن الرجل فيها يحمل اسم لاوي (ملاحظة لهيجل) .

أيضاً وأنتم سائرون في معنى ما جاء في أحد كتبكم المقدسة : « ليست الذبائح هي المقبولة عندي ، إنما الاستقامة » .

وكان بعض تلاميذ يوحنا المعمدان مندهشين مثل الفريسيين ، إذْ أنهم كانوا يصومون كثيراً ، بعكس أصدقاء يسوع الذين لا يصومون . فأجاب يسوع عن تساؤلاتهم :

« أي سبب حقيقي لديهم حتى يكونوا حزانى ؟ ستأتي أيام يرفع فيها معلمهم ، كما رفع معلمكم ، وحينئذ يمكنهم أن يصوموا ! وعلى كل حال ، لماذا تريدون أن أطلب منهم مشقة كهذه في طريقة حياتهم ؟ إن هذا الأمر لا يتفق مع عاداتهم التي ساروا بموجبها حتى الآن ، ولا مع مبادئي التي لا تقيم وزناً للمشقة الخارجية ولا تسمح لي بأن أفرض على الآخرين مراعاة لنص الممارسات » .

ولمّا اقترب عيد الفصح[39] ذهب يسوع إلى أورشليم مرة ثانية . وأثناء إقامته هناك ، حنق اليهود عليه كثيراً ، لأنه أسدى خدمة إلى أحد المرضى المحتاجين يوم السبت .

فقد رأوا في عمله تدنيساً لهذا اليوم المقدس وقرينة على عدم اعتباره هذه الوصية التي أمر بها الله نفسه وصية ملزمة ، وعلى انتحال حق لا يعود إلاّ إلى الله وحده ، وعلى اعتباره سلطته مساوية لسلطة الإله . فأجابهم يسوع :

« إذا كنتم تعتبرون مجموع شرائع كنيستكم ووصاياكم الوضعية بمثابة الناموس الأسمى المعطى للانسان ، فإنكم بذلك تتنكرون لكرامة الانسان ولقدرته على استخراج مفهوم الألوهة من ذاته ومعرفة مشيئتها . ومَنْ لا يحترم هذه القدرة التي فيه ، لا يمجّد الإله . ما يستطيع الانسان أن يسميه « أناه » ، هو ما يرتفع به فوق القبر والفساد ، ومَنْ يمنح نفسه المكافأة

(٣٩) يوحنا ٥ .

المستحقة يكون مسؤولاً عن محاكمة نفسه . هذه الأنا تُعتلن مثل العقل الذي لا تتوقف شرائعه على أي شيء ، والذي لا تستطيع سلطة على الأرض أو في السماء أن تدل على مقياس آخر للحكم عليه . ما أعلّمه ، لا أعلنه على أنه فكرتي أو خاصتي ، ولا ألزم أي إنسان بقبوله معتمداً على سلطتي ، لأنني لا أسعى إلى تمجيد نفسي . إنني أخضع تعليمي لنقد العقل الكليّ ، وهو الذي يحمل كل إنسان على أن يؤمن به أو لا يؤمن .

« ولكن كيف يمكنكم أن تقبلوا العقل بمثابة مقياس أسمى للمعرفة والايمان ، إذا كنتم لا تنصتون لصوت الألوهة ! أنتم لم تستمعوا يوماً إلى صدى هذا الصوت في قلبكم ، ولم تعيروا انتباهاً إلى مَنْ يطلق هذا الصوت . أنتم تعتقدون أن معرفة مشيئة الله وقف عليكم ، وتجعلون من التمييز الذي يضعكم فوق سائر أبناء البشر مادة طمعكم . أنتم تبتهلون إلى موسى ، ودائماً إلى موسى ، فتؤسسون إيمانكم على سلطة غريبة لرجل مفرد . أجل ! اقرأوا كتبكم المقدسة بعناية ، ولكن يجب أن تحملوا معكم إليها روح الحقيقة والفضيلة . وستجدون فيها الشهادة على هذه الروح ، وفي الوقت نفسه الشكوى عليكم : أي أن كبرياءكم السعيدة في أفقها المحدود لا تسمح لكم أن ترفعوا أنظاركم إلى أمر يعلو على علمكم الذي تعوزه الروح ، وعلى ممارساتكم الآلية » .

وتتيح بعض الأسباب للفريسيين فرصة اتهام يسوع وتلاميذه مرة أخرى بأنهم يدنسون السبت[40] . ففي أحد الأيام كان يتنزه مع أصدقائه في حقل مزروع . فأحسوا بالجوع ، وراحوا يقلعون السنابل ، أو ما كان مزروعاً هناك - ويرجح أنه الفاصوليا الشرقية . ويمضغون الحبوب (وهو الأمر الوحيد المسموح به) . ورأى الفريسيون ذلك فلفتوا انتباه يسوع إلى أن تلاميذه يقومون بأمر يُحرَّم القيام به يوم السبت . ولكن المسيح أجابهم :

(٤٠) متى ١٢ : ١ - ٨ ؛ لوقا ٦ : ١ - ٥ .

« ألا تذكرون في تاريخ شعبكم أن داود حين جاع أكل الخبز المكرَّس للهيكل ووزّع أيضاً على أصحابه ؟ ألا يتمّم الأحبار في الهيكل أعمالاً مختلفة ، حتى في السبت نفسه ؟ هل الهيكل هو الذي يجعل هذه الأعمال مقدسة ؟ أمّا أنا فأقول لكم : الانسان أعظم من الهيكل . الانسان ، لا أي مكان محدّد ، هو الذي يقدّس الأعمال أو يجعلها نجسة . فالسبت قد جُعل من أجل الانسان وليس الانسان مَنْ جُعِل من أجل السبت ، لأن الانسان سيّد السبت أيضاً . لو فكرتم فيما قلته سابقاً للبعض منكم حول معنى هذه الكلمات : « الله يطلب المحبة لا الذبائح » ، لما أنّبتم هؤلاء الأبرياء بخشونة » .

ودخل يسوع المعبد في سبت آخر ، وكان ثمة رجل يده مصابة ، فأراد اليهود أن يجدوا سبباً لاتهام يسوع ، فسألوه أن يقول لهم ما إذا كانت تجوز معالجته في ذلك اليوم . فأجاب يسوع :

« مَنْ منكم إذا كان له خروف ووقع في حفرة ، لا يخرجه يوم السبت ؟ أفلا يساوي الانسان أكثر من خروف ؟ لذلك يحلّ فعل الخير يوم السبت » .

لقد أدركنا بأمثلة عديدة سوء نية الفريسيين نحو يسوع . وبالفعل فقد اتفقوا من ذلك الحين مع جماعة هيرودوس[41] على ازاحة يسوع من طريقهم ، إذا استطاعوا ذلك .

وهكذا ذهب يسوع إلى الجليل ، حيث أخفى مكان اقامته بسبب تلك الملاحقات . وشدّد كثيراً على سامعيه الموجودين عنده ألّا يبوحوا بمكان اقامته .

واختار يسوع اثني عشر من سامعيه[42] ، حتى يكون إلى جانبه دائماً بعض الأشخاص الذين يستطيع أن ينفح فيهم روحه الخالصة : لأنه أدرك

(٤١) روك : (اتفقوا مع هيرودوس) .
(٤٢) لوقا ٦ : ١٢ - ١٣ .

جيداً أن حياة شخص واحد وقواه لا تكفي للنهوض بأمّة كاملة إلى الخلقية . وكرّمهم بتعليم خاص ، حتى يجعلهم قادرين على مساعدته في نشر مذهبه التعليمي . أمّا أسماؤهم فهي ، انظر مرقس ٣ : ١٦ - ١٩ .

ولمّا أرسل يوحنا المعمدان بعض أصدقائه إلى يسوع[43] ليسألوه عن هدف تعليمه ، أخذ يعنّف الفريسيين لأنهم تلقوا ببرود دعوة يوحنا لهم إلى أن يكونوا أخياراً . وقال :

« أي فضول دفعكم للذهاب إلى الصحراء ؟ من المؤكد أنها ليست الرغبة في أن تصبحوا أخياراً . أخرجتم لتروا أحداً من الذين يشبهونكم ، أو رجلاً بلا ميزة يغيّر مبادئه بحسب مصلحته[44] ؟ أقصبة تهزها الريح من جهة إلى أخرى ؟ أم رجلاً بثياب فاخرة يعيش عيشة باذخة ؟ إنكم لن تصادفوا مثل هؤلاء الرجال في الصحراء بل في قصور الملوك . أو ربما ذهبتم لرؤية نبي أو صانع معجزات ؟ أن يوحنا أعظم من كل ذلك .

« لقد لاقى يوحنا ترحيباً في الطبقة الدنيا من الشعب ، ولكنه لم يستطع أن يؤثر على الفريسيين أو مفسري الشريعة التقليديين ، ولا أن يجعل قلوبهم سهلة البلوغ إلى الخير . فبماذا أشبه هذا النوع من البشر ؟ أيشبهون أولاداً يلعبون في الساحة العامة ، ويصيح بعضهم ببعض : « زمرنا لكم فلم ترقصوا ! ندبنا لكم فلم تبكوا ! » جاءكم يوحنا ، فلم يأكل خبزاً ولا شرب خمراً ، فقلتم : « إن مزاجاً سيئاً يعذبه » . وجئتكم أنا آكلاً وشارباً كسائر البشر ، فقلتم أيضاً : « هذا الرجل أكول وسكّير ويعاشر أحقر البشر » . ولكن الحكمة والفضيلة ستجدان دائماً عباداً يثبتون قيمتها » .

ورغم هذا التصنيف دعاه أحد الفريسيين ، واسمه سمعان ، إلى تناول الطعام . وعلمت امرأة أن يسوع مدعو عند سمعان ، ويبدو أنها

(٤٣) لوقا ٧ : ١٨ .
(٤٤) يختلف نص نول قليلاً عن نص روك ، إلّا أنه يحافظ على المعنى نفسه .

تأثرت كثيراً بتعليمه ، فجاءت إلى الغرفة ومعها قارورة من الطيب النفيس ، اقتربت من يسوع ، وراحت تبكي متأثرة برؤيتها رجلاً فاضلاً ، وباحساسها بحياتها المليئة بالأخطاء ، ثم ارتمت على قدميه ، وهي تشعر أنها بمثل هذا تسهم في توبتها ورجوعها إلى طريق الفضيلة ، فقبلت قدميه وبللتهما بدموعها ومسحتهما بشعرها ودهنتهما بالزيت النفيس . ولكن الطيبة التي تقبّل بها يسوع هذه المظاهر ، الدالة على أن قلباً مليئاً بالتوبة والاعتراف قد وجد عزاءً ، هذه الطيبة التي لم ترفض هذا الاحساس جرحت رهافة الفريسيين . وظهر على سحنتهم مدى تحيّرهم من كون يسوع قد تلقى بحب عظيم امرأة ذات سمعة سيئة . وأدرك يسوع ذلك فقال لسمعان :

« عندي ما أقصه عليك » .

فقال سمعان : « تكلم » .

فروى يسوع : « كان لدائن مدينان ، له على أحدهما خمسمئة دينار وعلى الآخر خمسون . ولم يكن بوسعهما دفع دينهما ، فأعفاهما منه . فأيهما يكون أكثر حباً له ؟ » .

فأجابه سمعان : « مَنْ أعطاه أكثر ، بالتأكيد » .

فقال يسوع : « بلا شك » . ثم أشار إلى المرأة وتابع : انظرْ هنا . إني دخلت لبيتك فلم تقدِّم إليّ ماء لأغسل قدمي . أمّا هي فقد بللتهما بدموعها ومسحتهما بشعرها . أنت لم تقبّلني ، أمّا هي فلم تعتبر أن تقبيلها قدميّ يحطّ من كرامتها . أنت لم تدهن رأسي بزيت ، أمّا هي فبالطيب النفيس دهنت قدميّ . إن امرأة قادرة على حب كهذا ، واعتراف كهذا ، ستغفر لها خطاياها مهما كانت كثيرة . لأن البرودة في العواطف النبيلة على هذا النحو تشهد أن لا رجوع إلى الفضيلة المترفعة عن الأغراض » . ثم قال يسوع للمرأة : إنها لسعادة الهية أن أشهد انتصار إيمانك في ذاتك ، وثقتك في أنك ما زلت قادرة على فعل الخير ، وعلى شجاعتك ! فعيشي بسلام ! » .

وتابع يسوع طريقه عبر المدن والقرى وهو يعظ في كل مكان(٤٥) . وكان يصحبه رسله الاثنا عشر ونساء بعضهن غنيات كنّ ينفقن من أموالهن على اطعام الجماعة . وفي أحد الأيام احتشد جمع كبير فضرب لهم هذا المثل : (المثل قصة خيالية تقدِّم مذهباً تعليمياً بطريقة محسوسة ، وهو يختلف عن الحكاية والأسطورة من حيث الشخصيات الفاعلة ، فهي في المثل بشر وفي الحكاية حيوانات وفي الأسطورة جنّ أو كائنات رمزية) :

« خرج الزارع ليبذر بذره . فوقع قسم منه على الطريق فداسته الأقدام وأكلته الطيور . ووقع بعضه الآخر على الصخر ، حيث التربة قليلة ، فنبت ولكنه يبس بسبب الحرارة ولأن جذوره غير عميقة . ومنه ما وقع بين الشوك ، فنما الشوك معه وخنقه . ومنه ما وقع على الأرض الجيدة فأعطى ثلاثين وستين وحتى مئة ضعف » .

ولمّا سأله تلاميذه لماذا يعرض تعليمه للشعب من خلال الأمثال ، أجابهم :

« إن عندكم معنى الأفكار السامية المتعلقة بملكوت الله ، وبالخلقية التي ينشأ منها حق الانسان في أن يكون مواطناً فيه . ولكن الخبرة علّمتني أن هذا المعنى هو مجرد كلمات فارغة بالنسبة إلى اليهود . وعلى الرغم من ذلك فهم يرغبون في أن يسمعوا مني شيئاً ، ولكن أحكامهم المسبقة متجذِّرة بشكل لا يسمح للحقيقة العارية بالدخول إلى قلوبهم . وحده الذي يحوز استعدادات لتقبّل شيء أسمى في داخله ، يستطيع أن ينتفع من تعليمي . أمّا الشخص الذي ينعدم فيه هذا الحس بما هو أسمى ، فإنه لن يعرف على الاطلاق كيف يستخدم المعرفة القليلة التي يمكن أن يحوزها بالصدفة . إن لهم عيوناً ولا يرون شيئاً ، ولهم آذان ولا يسمعون شيئاً . ولهذا فاني لا أكلمهم إلّا بالمثال، وهاكم شرحه :

(٤٥) لوقا ٨ .

« الزرع المبذور هو معرفة الناموس الخلقي . ومَنْ سنحت له الفرصة لهذه المعرفة ، ولم يفهمها جيداً ، فأيّ مضلٍّ يستطيع أن ينزع بسهولة المقدار القليل من الخير الذي زرع في قلبه بالصدفة . وهذا هو معنى الزرع الذي سقط في الطريق .

« أمّا ما سقط في الأرض الصخرية ، فهو المعرفة المقبولة بفرح حقيقي ، ولكن من دون جذور مغروسة في العمق ، لذلك تستسلم سريعاً للظروف ، وتبيد إذا هددت الشدائد والآلام مصداقيتها .

« والزرع الساقط في الشوك ، يشبه أولئك الذين يتحدثون عن الفضيلة فعلاً ، ولكن الفضيلة تبقى في نفسهم ولا تعطي ثمراً ، لأن نفسهم مخنوقة باهتمامات الحياة وباغواء الغنى المخادع .

« أمّا الزرع في الأرض الجيدة ، فهو صوت الفضيلة المسموع ، والذي يحمل من الثمار حتى ثلاثين وستين ومئة ضعف » .

ثم ضرب لهم يسوع أمثلة أخرى(٤٦) :

« يمكن أن نشبه مملكة الخير بحقل زرعه صاحبه زرعاً جيداً . وبينما رجاله نيام جاء عدوه(٤٧) فزرع بين القمح زؤاناً ثم مضى خفية . فلمّا بدأ النبت يُخرج سنابله ظهر الزؤان أيضاً . فسأل الخدم سيِّدهم :

« لقد زرعت زرعاً خالصاً في حقلك ، فمن أين جاءه الزؤان ؟ » .

« فأجابهم السيد : « بعض الأعداء فعل ذلك بالتأكيد » .

« فقال الخدم : « أتريد أن نذهب فنستأصله ؟ » .

« فأجاب السيد(٤٨) ، وهو أكثر منهم حكمة : « لا ، لأنكم

(٤٦) متى ١٣ .
(٤٧) نول : (عدوه) . روك : (صديقه) .
(٤٨) نول : (ردّ) ؛ روك : (أجاب) .

ستنتزعون سنابل الحنطة مع الزؤان . فدعوهما ينبتان معاً إلى يوم الحصاد . وحينذاك أقول للحصادين أن يفصلوا الزؤان ويتلفوه ، وأن يجمعوا الحنطة الخالصة » .

ولمّا أصبح يسوع وحيداً مع تلاميذه ، طلبوا تفسير المثل ، فأجابهم :

« زارع الزرع الجيد يمثل البشر الأخيار الذين يلفتون نظر الناس إلى الفضيلة بأقوالهم وقدوتهم . والحقل هو العالم . والبذور الجيدة هي البشر النخبة ، أمّا الزؤان فهم الفاسدون . والعدو الذي زرع الزؤان يمثل الضالين والمضلِّلين ، وزمن الحصاد هو الأبدية ، وجزاء الخير والشر . وبانتظار ذلك ، فإن الفضيلة والشر يكونان في علاقة وثيقة أحدهما بالآخر ، فيمتنع الآن استئصال الأخير دون التسبب في ايذاء الأولى » .

وبمنظار آخر شبه يسوع مملكة الخير بحبة الخردل ، التي رغم صغرها تصبح غرسة عظيمة ، حتى أن الطيور تستطيع أن تصنع فيها اعشاشها . وشبَّهها أيضاً بالقليل من الخمير الذي يوزع على ثلاثة مكاييل من الدقيق ، فيخمر الأجزاء كلها . إن مملكة الخير مثل البذور التي تزرع في الأرض ولا تحتاج إلى أية عناية ، فإنها تنبت وتنمو دون أن يعرف أحد كيف يتم ذلك ، لأن الأرض بطبيعتها تملك قوة خاصة ، بواسطتها تنبت البذور وترتفع ساقها وتحمل سنابل ممتلئة(٤٩) .

وشبّه مملكة الخير أيضاً بكنز دفين في حقل ، وجده رجل ، فأخفى أمره . ثم ذهب فرحاً وباع كل ما يملكه ليشتري هذا الحقل . وشبّهها أيضاً بتاجر كان يطلب اللؤلؤ الجميل ، فلما وجد لؤلؤة ثمينة باع كل شيء ليقتنيها . أو بصياد وجد في شبكته سمكاً من كافة الأنواع ، فذهب إلى الشاطىء وفصل الجيد فوضعه في أوعيته ، وطرح الرديء . وهكذا في يوم الحصاد العظيم ، فإن الأبرار يميَّزون عن الأشرار . أمّا الأبرار فبالمكافأة التي

(٤٩) مرقس ٤ : ٢٦ .

سيجدونها في السلام الذي تعطيه الفضيلة ، وأمّا الأشرار فبذمهم واتهامهم لأنفسهم وخزيهم[٥٠] .

وحينئذٍ[٥١] جاء أقارب يسوع ليروه ، فلم يستطيعوا الوصول لكثرة الجمع . فابلغ يسوع بذلك ، فأجاب :

« إن أمي واخوتي هم الذين يسمعون صوت الإله ويطيعونه » .

ولّما جاءه خبر موت يوحنا المعمدان ، ركب سفينة على الشاطىء الشرقي لبحيرة طبرية[٥٢] ، ولكنه لم يلبث سوى فترة قصيرة بين الجراسيين ، ثم عاد إلى الجليل من جديد[٥٣] .

وفي الوقت عينه أرسل يسوع رسله الاثني عشر لمواجهة اليهود المتعصبين ، المزهوين بنسبهم وأصلهم ـ وهي أشياء ذات قيمة كبيرة في نظرهم ـ لذلك وضعوها فوق القيمة المفردة ، تلك القيمة التي تضفيها الخلقية على الانسان[٥٤] . وقال لهم :

« لستم في حاجة إلى القيام باستعدادات كثيرة من أجل رحلتكم ، أو إلى أن تلفتوا الأبصار بشيء من البذخ . اقيموا زمناً حيث يستمعون إليكم . ولا تفرضوا أنفسكم على مَنْ يرحِّب بكم ، بل اتركوا ذلك المكان فوراً وتابعوا طريقكم ! » .

ويبدو أنهم لبثوا فترة بسيطة غائبين ثم عادوا سريعاً إلى يسوع .

وفي أحد الأيام وجد يسوع نفسه بين جماعة من الفريسيين ومعلمي

---

(٥٠) عند روك ، تشكل هذه الجملة خلاصة مثل الزرع الجيد والزؤان .

(٥١) لوقا ٨ : ١٩ .

(٥٢) لوقا ٨ : ٢٢ ؛ مرقس ١٤ : ١٣ .

(٥٣) لوقا ٨ : ٣٧ .

(٥٤) لوقا ٩ .

الشريعة الآتين من أورشليم[٥٥] . فدهش هؤلاء لأن تلاميذ يسوع جلسوا إلى المائدة بأيدٍ نجسة ، أي غير مغسولة . لأن اليهود لا يأكلون إلّا بعد أن يغتسلوا جيداً ، جرياً على أمرٍ يستند إلى التقليد ، وعليهم أيضاً أن يغسلوا بالماء كل الكؤوس وسائر الأواني ، والكراسي والمقاعد قبل كل وجبة . فقال الفريسيون ليسوع :

« لماذا لا يجري تلاميذك على أوامر آبائنا ، فيجلسون إلى المائدة بأيدٍ غير مغسولة ؟ » .

فأجاب يسوع :

« ما قيل في أحد كتبكم المقدسة ينطبق عليكم تماماً : « هذا الشعب يكرّمني بالشفاه ، أمّا قلبه فبعيد عني ، وعبادته باطلة ، لأنها ليست سوى مراعاة للقواعد التي لا مرجع لها » . أنتم لا تكرِّمون الوصية الالهية ، ولكنكم تتمسكون حرفياً بالعادات البشرية ، كتبريك الأكواب والكراسي وسواها بالماء . إنكم مصيبون بهذا . فأنتم تنقضون وصية إلهية لكي تبقوا مخلصين لأنظمة كنيستكم . هذا هو الناموس : « أكرمْ أباك وأمك . ومَنْ تلفَّظ بكلمة قاسية نحو أبيه أو أمه يجب أن يُقتل » . ولكنكم أنشأتم ناموساً آخر ؛ فإذا قال أحدكم لأبيه أو أمه في صورة الغضب : « إن ما أستطيع أن أقدمه لكم من خدمات ومال سأقدمه « إلى الهيكل » ، تعتبرون أنه بهذا العمل قد أخذ نذراً بألّا يقدم لهم أية منفعة ، وتتهمونه بارتكاب الخطيئة إذا قدّم لأمه أو أبيه أية خدمة . وهكذا تنقضون وصية إلهية بوصايا من عندكم . ولديكم الكثير من الأنظمة على هذا النمط » .

ثم خاطب يسوع الجمع المحيط به :

« اصغوا إليّ وافهموا ما أقول : ما من مادة طبيعية ، وما من شيء يتناوله الانسان من الخارج يمكن أن ينجسه ، ولكن ما يفعله الانسان ، وما

---

(٥٥) مرقس ٧ .

يخرج من فمه ، هو الذي يدلّ ما إذا كانت نفسه طاهرة أو نجسة » .

وأراد تلاميذ يسوع لفت انتباهه إلى كون الفريسيين قد غضبوا لهذا الكلام . فقال :

« دعوهم يحنقون ، أن مثل هذه الأعشاب الصادرة عن الانسان يجب أن تُستأصل . إنهم عميان يقودون عمياناً . وأريد أن أنتزع من الشعب هؤلاء القادة العميان . وإلاّ فإنه سيسقط في الحفرة مع أولئك الذين وثق بهم » .

ولمّا تفرّقت الجموع وعاد يسوع إلى المنزل ، طلب منه أصدقاؤه أن يفسِّر لهم ما قاله للشعب حول الأشياء الطاهرة والنجسة . فأجابهم :

« حتى أنتم لم تتوصلوا بعد إلى فهم هذا الأمر ؟ ألا تفهمون أن ما يدخل فم الانسان يتحول في معدته وأمعائه ثم يُطرح خارجاً ؟ وأن الأشياء التي تخرج من القلب ، كالكلمات والأفعال ، تأتي من نفس الانسان ، وهي التي يمكن أن تكون طاهرة أو قذرة ، مقدسة أو نجسة . فمن النفس تولد الأفكار الشريرة والقتل والزنى والسرقة وشهادة الزور والافتراء والحسد والكبرياء وحياة الفجور والبخل . وهذه الشرور هي التي تنجس الانسان ، وليس كونه قد نسي بالصدفة أن يبارك يديه بالماء قبل أن يجلس لتناول الطعام » .

واقترب عيد المظال[٥٦] عند اليهود ، فألحّ عليه اقرباؤه أن يرافقهم إلى أورشليم حتى تكون حلقة الذين يعرفونه ويستمعون إليه أوسع مما هي في المدن والقرى الجليلية . فأجابهم يسوع أن الوقت ليس مناسباً لذلك ، ودعاهم إلى الذهاب ، لأن البشر لم يبغضوهم مثله ، فهو قد شهد امام اليهود أن سلوكهم فاسد وأعمالَهم شريرة . ولكن بعد بضعة أيام من مغادرة أقارب يسوع الجليلَ ، ذهب هو أيضاً إلى أورشليم ، إنما في الخفية . وهناك

---

(٥٦) يوحنا ٧ .

أخذ الناس يسألون عنه ، لأنهم كانوا ينتظرونه كيهودي . وكان حكم الشعب عليه ، وخاصة الجليليون ، مختلفاً ، فقال بعضهم انه رجل صالح وآخرون رأوا فيه مضلِّلاً . ولكن الجليليين لم يتحدثوا عنه جهاراً خوفاً من اليهود .

وفي انتصاف العيد ذهب يسوع إلى الهيكل وأخذ يعلِّم . فتعجّب اليهود ، لأنهم يعلمون أنه غير متعلِّم . فأجابهم :

« ليس مذهبي من اختلاق البشر ، حتى يحتاج المرء إلى تعلمه بالجهد من الآخرين . فمن ينوي اتباع ناموس الخلقية الأصيل ، دون أحكام مسبقة ، يمكنه أن يتحقق للحال ما إذا كان مذهبي من اختلاقي . مَنْ يسعى إلى مجده الخاص ، فمن المؤكد أنه سيقيم وزناً كبيراً للنظريات والوصايا البشرية . أمّا الذي يسعى حقاً إلى مجد الله فيكون من الصراحة بما يكفي لأن يطرح الاختلاقات التي أضافها البشر إلى الناموس الخلقي ، أو التي أحلّوها محله ! أنا أعلم أنكم تكرهونني وتسعون إلى قتلي لأنني أعلنت أنه يمكن شفاء مريض يوم السبت . لقد سمح لكم موسى أن تختنوا الانسان يوم السبت . فكم هو أعظم أن نعيد له صحته » .

وكان أناس من أورشليم يسمعونه ، فبدا من أحاديثهم أنهم سمعوا كلاماً عن عزم المجمع الكبير على التخلّص منه . ودهشوا لتكلّمه جهاراً وبحرية دون أن يمدّ أحد يده إليه ، وإنْ كانوا عازمين على ذلك . فالماسيّا الذي ينتظره اليهود ليجدد عظمة عبادتهم الالهية ويُعيد استقلال مملكتهم لا يمكن بالتأكيد أن يكون يسوع ، لأنهم يعرفون جيداً من أين هو ، أما ماسيّا فيجب أن يظهر فجأة حسب النبوءات .

وهكذا ، فإن ما واجه يسوع دائماً هو الأحكام المسبقة لليهود ، فإنهم قلّما طمحوا إلى معلم يسعى إلى جعل سلوكهم أفضل وإلى تحريرهم من أحكامهم المسبقة المناقضة للخلقية . لقد أرادوا ماسيّا يحررهم من الخضوع للرومان ، فلم يجدوه في يسوع .

ونقل خدم أعضاء المجمع الأعلى إلى هؤلاء أن يسوع في الهيكل . فأنّبوهم لأنهم لم يلقوا القبض عليه . فاعتذروا بقولهم إنهم لم يسمعوا إنساناً يتكلم مثله ، فلم يتجاسروا على الامساك به . فقال لهم الفريسيون : « كيف هذا ؟ يبدو أنه ضلّلكم أنتم أيضاً ! هل رأيتم فريسياً أو أحد أعضاء المجمع يكترث له ؟ إنه لا يستطيع أن يضلّل سوى أولئك الرعاع الذين يجهلون شريعتنا » .

فذكّرهم نيقوديموس ، وهو الذي جاء قبلاً إلى يسوع في الليل ، أنه بحسب الشريعة لا يمكن إدانة أحد قبل سماعه ، ودون أخذ معلومات دقيقة عن أعماله ، فاتهموه بأنه هو الآخر تابع للجليلي ـ مع أنه لا يمكن أن يكون أي نبيّ من أصل جليلي .

ويبدو أنهم لم يأخذوا قراراً قطعياً بموضوع يسوع ، فارفضّ المجمع من جديد .

وأمضى يسوع ليلته في جبل الزيتون[57] ، وربما في بيت عنيا الواقعة على سفح ذلك الجبل ، حيث يوجد بعض معارفه . ثم عاد إلى المدينة والهيكل . وبينما هو يعلّم فيه ، أتاه بعض معلمي الشريعة والفريسيين بامرأة أُخذت بجريمة الزنى . فأقاموها في الوسط ليحاكموها . وشرحوا حالها ليسوع قائلين إن شريعة موسى أمرت برجمها ، وسألوه رأيه . وأدرك يسوع نيتهم في نصب فخ له . فتظاهر بأنه لم يسمع شيئاً . وانحنى يخط باصبعه على الرمل بعض الصور . فلمّا ألحّوا في معرفة رأيه ، نهض وقال لهم : « مَنْ يعلم منكم أنه بلا خطيئة ، فليرمها بالحجر الأول ! » ثم أخذ يخطّ رسوماً في الرمل من جديد . فلمّا سمع معلمو الشريعة جواب يسوع انسحبوا بسرعة واحداً بعد الآخر ، فبقي يسوع وحده مع المرأة . ثم نهض فلم يجد أحداً سواها ، فسألها : « أين هم متهموكِ ، أفلم يدنكِ أحد منهم ؟ » .

(٥٧) يوحنا ٨ .

فقالت : « أبداً » .

فأجاب يسوع : « وأنا أيضاً لا أدينك . الوداع ، ولا تعودي إلى الخطيئة مستقبلاً » .

وفي مرة أخرى[58] ، كان يسوع يحادث الشعب في الهيكل ، فسأله الفريسيون عن البرهان الذي يستطيع أن يقدمه إلى نفسه وإلى الآخرين حتى يؤكد صحة مذهبه التعليمي . فقد كانوا ينعمون بالسعادة لامتلاكهم دستوراً وشرائع مؤكدة باعلانات رسمية من الإله . فأجابهم يسوع[59] :

« أتعتقدون أن الإله قد رمى الجنس البشري في العالم ، وعهد به إلى الطبيعة ، دون أي ناموس ، ودون أي شعور بالهدف الأسمى لوجوده ، ومن غير أن يكون بامكانه أن يجد في نفسه الطريقة التي يرضي بها الإله[60] ؟ أو ربما تعتقدون أن معرفة الشرائع الأخلاقية مسألةُ حظ ، وأنها قد أُعطيت لكم وحدكم ، في هذه البقعة من الأرض ، دون أن يدري أحد لماذا ، فحصرت فيكم من بين كل أمم الأرض ؟ ضيق فكركم الأناني هو الذي يوهمكم بذلك . أمّا أنا فلم أصغِ إلاّ إلى الصوت الصادق لقلبي وشعوري . ومَنْ يستمع له بعناية تنيره الحقيقة الكامنة فيه . انصتوا إلى هذا الصوت ، فهذا هو الأمر الوحيد الذي أطلبه من تلاميذي . هذا الناموس الداخلي هو ناموس الحرية ، الذي يقدِّم الانسان ذاته له ، ويخضع له بحرية حرية . إنه أزلي ، وعليه يستند الاحساس بالخلود . ومن أجل الواجب الذي يحتم علي أن أنقل هذا الناموس إلى ضمير البشر ، أنا على وشك ترك الحياة ، مثل الراعي الأمين الذي يموت فداء عن قطيعه . يمكنكم أن تأخذوا حياتي لا أن تنتزعوها ، لأني أنا نفسي أضحي بها طوعاً . أنتم عبيد لأنكم واقعون تحت

(٥٨) يوحنا ٨ : ١٢ ـ ٢٠ .
(٥٩) يوحنا ٨ : ٢١ ـ ٣٠ .
(٦٠) قال غوته : « كل إنسان يستطيع سماعه . . . إذا كان نبع الحياة يجري صافياً في باطنه » (ملاحظة لهيجل) .

نير الناموس الذي فُرض عليكم من الخارج ، ولهذا السبب هو عاجز عن انتزاعكم من خدمة نوازعكم باحترام أنفسكم » .

إن الترحيب الذي لقيه يسوع في أورشليم[٦١] ، وتصرف اليهود العدواني ، وخاصة الكهنة الذين اتخذوا قراراً بأن يحرموا كل مَنْ يعتبر يسوع ماسيّا المنتظر ، وأن يقصوه عن الاشتراك في العبادة الالهية والتعليم الرسمي[٦٢] - وهو الأمر الذي جعل يسوع يتجنّب تقديم نفسه للشعب علناً[٦٣] - هذا التصرف العدواني أعطاه احساساً مسبقاً بالعنف (وربما الموت) الذي سيعانيه فيما بعد ، فنقل هذه الأفكار إلى تلاميذه .

فقال بطرس : « نرجو ألّا يحصل شيء من هذا ، لا سمح الله » .

فأجاب يسوع : « كيف تقول هذا ، هل أنت ضعيف حتى تعذّر عليك التهيؤ لذلك ، أو تظن أنني غير مستعد له ؟ أنت ما زلت تفكر بحواسك ! وتجهل أيضاً القدرة الإلهية التي تفرض احترام الواجب ، وتتغلب ، بحب الواجب ، على مقتضيات النوازع ، وحتى على محبة الحياة ! » .

ثم توجه إلى التلاميذ الآخرين قائلاً :

« مَنْ يرغب في اطاعة الفضيلة يجب أن يعرف كيف يلزم نفسه بالفقر . ومَنْ يرغب في أن يبقى مخلصاً للفضيلة بطريقة راسخة ، يجب أن يكون مستعداً لتكريس كل شيء ، حتى حياته ، من أجلها ! مَنْ يحب حياته الخاصة يفسد نفسه . ومَنْ يحتقر حياته ، يبقى مخلصاً لأناه الفضلى ويخلّصها من متطلبات الطبيعة . أية قيمة تبقى للانسان ، إذا ربح العالم كله وأذلّ أناه من أجل ذلك ؟ وأي ثمن يمكن أن يكون معادلاً للفضيلة المفقودة ؟ سيأتي

---

(٦١) لوقا ٩ : ٢١ وما يليها .

(٦٢) يوحنا ٩ : ٢٢ .

(٦٣) يختلف نص نول عن نص روك تماماً . فعند نول : (تجنب يسوع تقديم ....) . أمّا عند روك : (قدّم يسوع نفسه ....) .

يوم يشعّ فيه المضطَهَد بمجده ، والعقل المستقر في حقوقه يحدد لكل انسان مكافأة أعماله » .

وبعد اقامة طالت أكثر من المعتاد (لأن يسوع بقي في أورشليم من عيد المظال حتى عيد التجديد في كانون الأول)[٦٤] رجع لآخر مرة إلى مكان اقامته المعتاد في الجليل[٦٥] . ويبدو أنه لم يعلّم في هذه الفترة أمام الجموع كما في السابق[٦٦] ، بل انصرف أساساً إلى تثقيف تلاميذه .

وفي كفرناحوم[٦٧] طُلبت منه الضريبة السنوية المخصصة للهيكل . فقال لبطرس وهما عائدان إلى البيت : « ماذا تقول يا بطرس ، أيأخذ ملوك الأرض الضريبة من أبنائهم أم من الآخرين ؟ » .

فأجاب بطرس : « من الآخرين » .

فقال يسوع : « إذاً فالبنون معفون . ونحن الذين نعبد الله حسب الروح الحقيقية ، يجب ألّا نساهم مطلقاً في نفقات الهيكل الذي لا نحتاجه من أجل عبادة الله ، لأننا نسعى إلى عبادته بالسلوك الحسن ، وعلى أية حال ، ادفعْ لهم عنا ، كي لا يستاؤوا ، وحتى لا نبرهن عن احتقار لما يعتبرونه مقدساً » .

وقام جدال بين تلاميذ يسوع حول مكانة كل منهم في ملكوت الله يوم تجليه[٦٨] . لأنهم لبثوا يقرنونه بأفكار من عالم الحواس ، ولم يتحرروا بعد من التصور اليهودي لمملكة أرضية ، ولم يدركوا بطريقة خالصة أن ملكوت الله هو مملكة الخير ، حيث لا سلطان لغير العقل والناموس . واستمع يسوع إلى هذا الجدل وهو حزين . ثم دعا طفلاً وقال لتلاميذه :

---

(٦٤) يوحنا ١٠ : ٢٢ .

(٦٥) متى ١٧ : ٢٢ .

(٦٦) مرقس ٩ : ٣٠ .

(٦٧) متى ١٧ : ٢٤ - ٢٧ .

(٦٨) لوقا ٩ : ٤٦ - ٥٠ .

« إذا لم تتغيروا وتعودوا إلى براءة هذا الطفل وصفائه وبساطته ، فأنتم لستم من مواطني ملكوت الله . مَنْ يخطأ إلى الآخرين(٦٩) ، حتى إلى طفل كهذا ، ويظن أن بامكانه أن يسمح لنفسه بأي أمر ضدهم ، ويعتقد أن لديه سلطة ليعاملهم بلا مبالاة ، هو مذنب . أمّا الذي يجرح قداسة البراءة ويسيء إلى طهارتها ، فمن الأفضل له أن يُعلّق في رقبته حجر رحى ويُرمَى في البحر ! ليست الاساءات إلى النفس الطاهرة قليلة في هذا العالم ، ولكن ويلٌ للانسان الذي يتسبب في مثل تلك المعثرة . انتبهوا جيداً كي لا تحتقروا أحداً ، وخاصة بساطة القلب : فهي الزهرة الأكثر رقة ونبلاً في الانسانية ، إنها أصفى صورة للألوهة . وهي وحدها التي تمنح المكانة الرفيعة ، بل أرفع مكانة . هذه البساطة تستحق أن يُضحّى في سبيلها بكل ما تقوم به أعزّ ميولكم ، وبكل احساس بالخيلاء والطمع ، أو الحشمة الكاذبة ، وبكل الاعتبارات النفعية أو المغرية .

« الزهو بارتفاعكم فوق الآخرين لن يستولي عليكم إذا نزعتم إلى البساطة ، وإذا علمتم كيف تقدّرون الكرامة التي من أجلها وُجد كل إنسان ، والتي هي في مستطاع كل إنسان . وكذلك إذا فكرتم أخيراً أنه مثلما لا يمكن أن تكون الأشجار ذات مظهر واحد(٧٠) ، فإن مَنْ ليس ضدكم ، حتى مَنْ تحتاجه الانسانية حقاً ، هو معكم ، رغم كونه صاحب طبائع وعادات مختلفة ـ فهذه أمور غير مهمة .

« أمّا إذا كنتم تعتقدون حقاً أن ثمة أشياء مفقودة ، فلا تظهروا احتقاركم ، بل ابذلوا جهداً لاصلاحها ، ولاعادة البشر إلى طريق الفضيلة . أفلا تعتقدون أن الراعي الذي يضلّ خروف واحد من خرافه المئة يقطع الجبال من أجل استعادة الخروف الضال ؟ وإذا وجده ، أفلا يشعر بفرح

(٦٩) نول : (يحس) . روك : (يخطأ) . ولكن معنى الجملة يدل على أن روك هو المصيب .

(٧٠) انظر ليسينج ، ناثان الحكيم ٤ ، ٤ (ملاحظة هيجل) .

أعظم مما يحسه لأن التسعة والتسعين لم تضلّ ؟

« ولكن إذا أساء إليك أحد ، فاسع إلى مصالحته ، دعه يفسّر سلوكه واتفق معه . فإذا استمع إليك ، فإنها تكون غلطتك إذا لم تستطع الاتفاق معه . وإذا لم يستمع إليك فاصطحب معك شخصين لازالة الخلاف . فإذا لم ينجح ذلك اعرض دعواك على عدد من الوسطاء . فإذا لم يمدَّ يده من أجل مصالحتك ، وإذا كنت من جهتك قد فعلت كل ذلك ، تجنّبه ولا تعد إلى مخالطته . إن الإهانات والمظالم التي يسامح البشر بعضهم بعضاً عنها ويستدركونها ، هي أيضاً مغفورة في السماء . وعندما تتوحّدون بروح المحبة والمصالحة ، يهيمن عليكم الروح الذي أريد أن أحييه فيكم » .

وهنا سأله بطرس(٧١) : « كم مرة يجب أن أسامح الانسان الذي يسيء إليّ ويتسبب في إيذائي ؟ حتى سبع مرات ربما ؟ » .

فأجابه يسوع : « أتعتقد أن ذلك كثير ؟ إني أقول لك : سبعون مرة سبع مرات . فاسمعْ هذه القصة :

« أراد أمير أن يحاسب خدمه . وكان على أحدهم عشرة آلاف وزنة . ولم يكن هذا المبلغ بحوزته . فأمره أن يبيع كل ما يملك ، وأن يبيع حتى زوجته وأولاده كعبيد ، ليسدِّد دينه . فانطرح الخادم على قدميه ، وناشده الصبر وتأجيل الموعد ، لأنه يريد أن يدفع كل شيء . فرقّ سيده لحاله وأعفاه من دينه كله .

« ولمّا خرج ذلك الخادم من عند سيده لقي خادماً من رفاقه ، وكان له عليه مئة دينار (مبلغ يقل عن المبلغ السابق بنسبة واحد إلى أكثر من مليون) . فعنّفه وأجبره بقسوة على تأدية الدين . ولم ينصت إليه لمّا جثا على ركبتيه ورجاه أن يمهله ، بل وضعه في السجن إلى أن يقضي الدين . فاستاء الخدم الآخرون مما حصل أمامهم ، وأخبروا الأمير .

(٧١) متى ١٨ : ٢١ ـ ٣٥ .

« فدعا الخادم القاسي وقال له :

« أيها الانسان القاسي القلب ، لقد أعفيتك من دينك الكبير لأنك سألتني . أفما كان يجب عليك أنت أيضاً أن تشفق على الآخر كما رحمتك أنا ؟ خذوه ! » .

« ثم أمر الأمير بوضعه في السجن إلى أن يؤدّي ما عليه .

« ترون في هذا المثل أن روح المصالحة هي الدليل على نقاوة الشعور التي لا تقبل الألوهة المقدسة سواها ، لأن لها كمال القيمة ، أمّا الأعمال فغالباً ما تكون غير كاملة : أنتم ترون أن هذه الروح هي الشرط الوحيد الذي يمكّنكم من أن تأملوا في أن تعفيكم العدالة الأزلية مما تستحقونه من عقاب ، جزاء سيرتكم السابقة ؛ والشرط لتصيروا بشراً آخرين بتغيير روحكم » .

وقرر يسوع أن يعود إلى أورشليم مجدداً ، عن طريق السامرة(٧٢) . فأرسل بعضاً من رفاقه ليتقدموه ويعدّوا الاحتياجات في إحدى القرى . ولّما علم السامريون أنه قرر الذهاب إلى أورشليم من أجل الفصح ، لم يرغبوا في استضافته ، ورفضوا حتى مروره في قريتهم . فخطر لبعض رفاق يسوع الطلب إلى السماء أن ترسل صواعقها على تلك القرية . فالتفت يسوع نحوهم ساخطاً وقال :

« أهذا هو الروح الذي يحركّكم ، روح الانتقام ؟ حتى إذا تطوعت قوى الطبيعة لخدمته ، استعملها ليقتص(٧٣) من سوء اللقاء بالتدمير ! فليكنْ هدفكم بناء مملكة الخير لا التدمير » . ثم عادوا من طريق أخرى .

وبينما هم سائرون ، عرض أحد معلمي الشريعة أن يرافق يسوع على الدوام(٧٤) . فقال له يسوع :

---

(٧٢) لوقا ٩ : ٥١ .

(٧٣) نول : (اقتصّ) . روك : (انتقم) .

(٧٤) لوقا ٩ : ٥٧ .

« فكّر في الأمر جيداً : إن للثعالب أوكرة وللطيور أعشاشاً . أمّا أنا فلا أستطيع أن أقول عن أي مكان أنه مكاني الخاص أو أن رأسي يمكن أن يرتاح فيه » .

ثم أخذ يسوع طريقاً أخرى أطول قليلاً للذهاب إلى أورشليم(٧٥) . وكان يرسل دائماً اثنين من مرافقيه ليتقدموه ويعلموا الناس بقدومه ، لأن عدد تابعيه كان كبيراً . وأعطاهم توجيهات تتعلق بسلوكهم أثناء الرحلة . فإنهم يجب ألاّ يسعوا إلى اغتصاب الحفاوة حيث لا يريدون استقبالهم ، بل عليهم متابعة طريقهم ، وأن يكون هدفهم الأساسي في كل مكان حثّ الناس على الخير . « ثمة أعمال كثيرة هنا ، ولكن العمال قليلون ! » .

وأخبره التلاميذ أنهم وجدوا استقبالاً طيباً هنا وهناك(٧٦) . ولدى سماعه هذا الخبر قال ما يلي :

« فلتكن مسبحاً وممجداً يا أبا السماء والأرض ، لأن تمييز كل إنسان للواجب لا يتم بموهبة العلم والمعرفة ، ولأن كل قلب غير فاسد يمكنه أن يشعر من ذاته بالفارق بين الخير والشر . واحسرتاه ! ليت الناس وقفوا عند هذا الحد فلم يختلقوا علاوة على الواجبات التي يفرضها العقل ، نصيباً من الأعباء(٧٧) الأخرى ليعذبوا الانسانية البائسة ! تلك الأعباء التي تصير نبع الكبرياء ، فلا يعرف أحدٌ أن يجد لها إرضاء إلاّ على حساب الفضيلة » .

وأثناء الرحلة التقى يسوع أحد معلمي الشريعة ، فأراد الأخير محادثته ليعرف مبادئه ويمتحنها . فقال :

« يا معلم ، ماذا عليّ أن أفعل لأستحق السعادة القصوى ؟ » .

فسأله يسوع : « بماذا تأمرك الشريعة ؟ » .

---

(٧٥) لوقا ١٠ .

(٧٦) لوقا ١٠ : ١٧ وما يليها ؛ متى ١١ : ٢٥ ـ ٣٠ .

(٧٧) نول : (اعباء) . روك (عيوب) .

فأجاب : « أن تحب الإله بكل نفسك ، لأنه مثال القداسة ، وأن تحب قريبك حبك لنفسك » .

فقال يسوع : « بالصواب أجبت . افعلْ هذا فتستحق السعادة القصوى » .

وأراد معلم الشريعة أن يثبت أن هذه الاجابة لم تُرْضِ أعماق روحه ، فقال :

« إن هذا يتطلّب توضيحاً . فمَنْ هو بالتحديد[78] هذا القريب الذي نؤمر بمحبته ؟ » .

فقال يسوع : « سأشرح لك ذلك بقصة :

« كان رجل ذاهباً من أورشليم إلى أريحا . وكانت طريقه تمر في صحراء غير آمنة . فوقع في أيدي اللصوص الذين سلبوه وضربوه وتركوه هناك نصف ميت . وما كادوا ينتهون من جريمتهم حتى اتفق أن مرّ أحد الكهنة في الطريق عينها . فرأى الجريح ، ولكنه تابع طريقه . ومرّ أيضاً لاويّ في تلك الطريق دون أن تأخذه الشفقة عليه . ولكن سامرياً مرّ من هناك فأشفق عليه حالما رآه ، فاقترب منه وضمّد جراحه ، وصبّ عليها إضافة إلى ذلك زيتاً وخمراً . ثم حمله على بغله ونقله إلى أحد الفنادق ، حيث تركه ليعتنوا به . وفي الغد ، قبل أن يتابع طريقه ، أعطى صاحب الفندق بعض المال للانفاق على الاسعافات التي ما يزال المريض بحاجة إليها . ودعاه إلى عدم الاقتصاد في المعالجة إذا تعدّت النفقات ذلك المبلغ ، لأنه سيدفعها إليه عند عودته .

« فقلْ لي الآن ، أي هؤلاء الثلاثة هو الذي تصرّف كقريب لهذا البائس ؟ وأيهم هو الذي اعتبره قريباً ؟ » فقال معلم الشريعة :

---

(78) كلمة (بالتحديد) لا توجد عند روك .

« الذي عامله برحمة » .

فقال يسوع : « وأنت أيضاً اعتبر كلَّ مَنْ يحتاج إلى نجدتك ورحمتك قريباً لك ، مهما كان قومه ومعتقده ولونه » .

ولكن الفريسيين ، العاجزين عن إدراك مذهب يسوع التعليمي[79] ، لأنه يضع نصب أعينهم قصور طريقتهم الشرعية المحضة في التصرف إذا ما قورنت بالخلقية ، طلبوا منه مراراً ، كشهادة على تعليمه الذي يدحض قيمة شرائعهم ، ظاهرة جوية خارقة ، شبيهة بالتي كان يهوه يؤكد بواسطتها اعتلانه المهيب . فأجابهم يسوع :

« في المساء تقولون : « غداً سيكون الطقس جميلاً ، لأن الشمس حمراء في الشفق » . ولكن إذا كانت شمس الصباح حمراء مغبرّة ، فإنكم تتنبأون بالمطر . وهكذا تعرفون منظر السماء فتتكهنون بالجو الذي سيكون ، أمّا علامات الزمن الحاضر فلا تعرفون تقديرها . أفلا تلاحظون أن حاجات سامية قد اتضحت في الانسان ، وأن العقل قد استيقظ ؟ وأن العقل يعترض على مذاهبكم التعليمية وتشريعاتكم التعسفية ، وعلى احتقاركم للفضيلة وللمصير النهائي للانسان بأن تخضعونها لمذاهبكم وتشريعاتكم . إن العقل سيعترض على الاكراه الذي تريدون بواسطته الاحتفاظ بسلطة إيمانكم ووصاياكم على شعبكم ! لن تُعطى لكم آية سوى آية المعلمين[80] الذين يمكنكم أن تتعلموا منهم ما يمكن استخدامه من أجل خيركم الأعظم وخير الانسانية » .

ودعاه أحد الفريسيين[81] إلى الغداء عنده . وتعجّب لأن يسوع لم

---

(79) لوقا ١١ : ١٦ ؛ متى ١٦ : ١ .

(80) نول : (معلمين) ؛ روك : (مذاهب) .

(81) لوقا ١١ : ٣٧ ؛ متى : ٢٣ .

« أخصبت أرض رجل غني إلى حد جعله يرتبك من كثرة الغلة . فاضطر إلى توسيع أهرائه لجمعها . ففكر في نفسه : « عندما تنتظم الأمور ، احفظي كل المحصول بعناية ، وهكذا تعيشين في غنى لسنين عديدة . فاستريحي إذاً وكلي واشربي وتنعّمي » .

« ولكنه سمع في تلك اللحظة صوت الموت : « يا جاهل ، في هذه الليلة ستطلب منك نفسك ، فلمَنْ تجمع هذا كله ؟ » .

« وكذلك مَنْ يكنز كنوزاً ولا يفكّر في غنى ومصير هدفهما خالد ، فإنه يبذل مجهوداً باطلاً من أجل هدف مبتذل . لا يكن الاهتمام بالغنى هو المالىء نفسكم ، ولتكنْ روحكم مكرَّسة للواجب وحده ، وعملكم لمملكة الخير !

« كونوا مستعدين كرجال تسلحوا للحياة وللموت ! وإلاّ ، فإن محبة الحياة ستسلح الموت ضدكم بالرعب ، والخوف من الموت سيسرق منكم حياتكم . لا تؤجلوا ، ولا تعتقدوا أن ليس ثمة ما يستحثكم على تكريس أنفسكم للغايات السامية ، بدل تلك الغايات القائمة على تكديس الكنوز والعيش من أجل اللذات . كل لحظة تتملصون فيها من خدمة الخير هي لحظة مفقودة من مصيركم .

« أو أن الموت يفاجئكم ، فتشبهون الوكيل الذي أمّنه سيده الغائب على العناية ببيته أثناء غيابه . فيفكر الوكيل : إن سيدي سيبقى غائباً مدة طويلة . ويبدأ في إساءة معاملة الخدم والعيش في الفسق والسكر . ولكن سيده يفاجئه في اللحظة التي لم يكن يتوقعها ، فيعاقبه بما يستحق .

« وكما أن الخادم الذي يعلم مشيئة سيده ، ولا ينفذها ، يُعاقَب بقسوة تفوق عقوبة مَنْ يتصرف تصرفاً مذنباً دون أن يعلم مشيئة سيده ، فكذلك يطلب الكثير من الانسان الذي يوثق به ، وتكون لديه الموهبة والظروف الملائمة لفعل الخير الكثير .

« أتتصورون أني جئت لأدعوكم إلى التمتع بالحياة في هدوء ؟ أو أن المصير الذي انتظره لنفسي وأرغب فيه ، هو مستقبل خال من الاهتمامات وسعيد ؟ لا ، إن الاضطهاد هو نصيبي ، ونصيبكم أيضاً ! الخلاف والمنازعة هما محصلة مذهبي التعليمي . ذلك الصراع بين الرذيلة والفضيلة ، بين التعلق بالاعتقادات والعادات التقليدية للإيمان ، التي أنشأتها سلطة ما في أدمغة البشر وقلوبهم ، وبين العودة إلى الخدمة المتجددة للعقل المستقر في حقوقه ، هذا الصراع سيفرِّق أصدقاء وعائلات ، وسيكون فخراً لنخبة البشر .

« ولكنه سيكّون مميتاً ، إذا وضع أولئك الذين هدموا ما هو قديم لأنه يقيم عقبات أمام حرية العقل وينجس منابع الخلقية ، إذا وضعوا مكانه إيماناً مفروضاً ومقيداً بالحرف ، مما يحرم العقل مجدداً من حقه في أن يستمد الناموس من ذاته ، وأن يؤمن به بحرية ، وأن يخضع له . واحسرتاه ! هذا الصراع سيكون مميتاً إذا سلموا هذا الإيمان الموصى به بالسيوف وبالواجب الظاهري ، أو إذا حرّضوا الآباء على الأبناء والأخوةَ على الأخوة والأمهات على بناتهنّ ، أو إذا جعلوا الانسانية خائنة لذاتها ! » .

وروي ليسوع حدثٌ حصل في ذلك الزمان(٨٦) ومفاده أن بيلاطس ، الوالي الروماني على اليهودية ، قتل عدداً من الجليليين الذين كانوا في سبيلهم إلى تقديم الذبائح ، دون أن تُعرف الأسباب . وكان يسوع قد أَلِفَ طريقة تفكير تلاميذه(٨٧) الذين رأوا في مرة سابقة أحد العميان ، فاستنتجوا للحال أن هذا الأعمى أو أحد أقاربه يجب أن يكون مجرماً كبيراً . فوجد يسوع في هذا الحدث مناسبة للعظة التالية :

« أتظنون أن هؤلاء الجليليين هم أكثر أبناء شعبهم خطيئة حتى كابدوا هذا المصير ، أو أن أولئك الثمانية أو العشرة الذين سحقهم برج سلدام مؤخراً ، هم أكثر سكان أورشليم فساداً ؟ لا . فاصدار حكم دون شفقة

---

(٨٦) لوقا ١٣ .

(٨٧) يوحنا ١١ .

على بشر حصل لهم مثل هذا الشقاء ، ليس الجهة المناسبة التي يجب أن تتأملوا منها هذا الحدث . ولكن ، إذا انتزعكم هذا الحدث من الهدوء الذي تستسلمون إليه ، ومن رضاكم عن نفسكم ، فيجب أن تبدأوا بضميركم ، وتتساءلوا بكل أمانة ما إذا كنتم تستحقون مصيراً كهذا ؟ اسمعوا القصة التالية :

« زرع صاحب كرم شجرة تين . وكان كلما أتى ليقطف بعض الثمار لا يجد شيئاً . فقال للبستاني : « منذ ثلاث سنوات وأنا آتي إلى هذه الشجرة عبثاً ، اقطعها حتى نستعمل الأرض التي تحتلها استعمالاً أفضل » .

« فأجابه البستاني : « اتركها هذه السنة أيضاً ، حتى اقلب الأرض حولها واسمِّدها . وآمل أن تعطي ثمراً حينئذٍ . فإذا لم تعطِ ، اقطعها » .

« المصير المستحقّ ينتظر طويلاً في الغالب ، فيتيح للشرير فرصة إصلاح نفسه ، وللمتكاسل فرصة التدرب على معرفة غايات سامية . فإذا ترك هذه المدة تنقضي ، وهو غير مبال ، يفاجئه مصيره ويقع عليه العقاب » .

وتابع يسوع طريقه نحو أورشليم ، وكان يتوقف هنا وهناك حيث يجد فرصة لاعطاء الناس بعض التعاليم الطيبة . وفي هذه الرحلة طُرح عليه سؤال عمّا إذا كان عدد الذين سيخلصون قليلاً ؟ فأجاب :

« فليكافح كل منكم حتى يجد الطريق الضيق لطريقة العيش الطيبة . كثيرون يسعون ولا يجدونه . إذا أقفل سيد البيت بابه ، وقرعتموه وصرختم حتى يفتح لكم ، فإنه يجيبكم : « أنا لا أعرفكم » . لقد أكلتم وشربتم معه في الغالب ، واستمعتم إلى تعليمه . ولكنه يجيبكم :

« صحيح أنكم أكلتم وشربتم معي واستمعتم إليّ عندما كنت أعلّم . ولكنكم فسدتم ، وأنا لا أعرفكم بين أصدقائي . اذهبوا من هنا ! » .

« إن كثيراً من الذين في المشرق والمغرب وفي الشمال والجنوب ، الذين

يعبدون زوساً أو براهما أو فودَن ، سيجدون نعمة امام قاضي العالم ، وكثيرون من الذين يفاخرون بمعرفتهم الله ، ويشوهون هذه المعرفة السامية أمام الآخرين بطريقة حياتهم ، ويظنون أنهم الأولون ، سيكونون ملعونين » .

وحذّر بعض الفريسيين يسوع ودعوه إلى مغادرة مقاطعة هيرودوس لأنه يريد أن يقتله ـ وليس معلوماً إذا كانوا قد فعلوا ذلك بنيّة طيبة أو لمخطط آخر . فأجابهم يسوع إن طبيعة أعماله لا يمكن أن تسبب أي قلق لهيرودوس ، وأكثر من ذلك ، إنه لأمر شاذ ألاّ تكون أورشليم ، وهي المسرح المعتاد لموت كثير من المعلمين الذين حاولوا شفاء الشعب اليهودي من تعنته في أحكامه المسبقة وشعوذاته التي كان يضحي في سبيلها بكل قواعد الخلقية والحكمة ، ألاّ تكون أورشليم المكان الذي يجب أن يصيبه فيه مثل هذا المصير .

وعاد مجدداً إلى تناول الطعام عند أحد الفريسيين[٨٨] ولاحظ مسارعة البعض هناك إلى المقاعد الأولى ، واعتقادهم أنها يجب أن تتغيّر بحسب طبقتهم . فلفتهم إلى أن المسارعة إلى التدافع من أجل الأماكن الأولى يمكن أن تصبح في الغالب سبباً للفوضى . لأنه إذا جاء شخص من طبقة أرفع ، فيجب أن يرضى الجالس بترك مقعده وتغييره وهو في ارتباك وعلى العكس ، فإن مَنْ يجلس في المقعد الأخير ، سيدعوه المضيف إلى الصعود إلى مقعد أعلى ، فيعظم شأنه . وعلى العموم فإن مَنْ يرفع نفسه يتضع ، وبالعكس فإن المتواضع يُرفع .

ولفت مضيفه إلى أن يدرك أنه إلى جانب الاستضافة القائمة على دعوة أقاربه وأصدقائه وجيرانه الأغنياء ، الذين يستجيبون في العادة إلى مثل هذه الدلالة على المحبة بدعوات مماثلة ، ثمة استضافة أكثر نبلاً : وهي إطعام المرضى والمساكين والتعساء الآخرين الذين لا يسعهم إعادة الحسنة إلاّ

(٨٨) لوقا ١٤ .

بتعبيرهم غير المصطنع عن عرفانهم بالجميل وإحساسهم بالبؤس الذي وُجد مَنْ يؤاسيه ، وبالشعور الذي تمنحه مثل هذه الأعمال ، كسكب البلسم على جروح التعساء وتعزية البؤس .

فقال أحد المدعوين : « طوبى لِمَنْ يكون أحد هؤلاء ، فإنه من مواطني ملكوت الله ! » .

فشرح يسوع هذا المفهوم لملكوت الله بمَثَل الأمير[٨٩] الذي أراد الاحتفال بزفاف ابنه بمأدبة فاخرة ، فدعا كثيراً من الضيوف . وفي يوم الاحتفال أرسل خدمه إلى المدعوين ، ليطلبوا منهم الحضور لأن المأدبة بانتظارهم .

فاعتذر الأول عن عدم المجيء بأن عنده حقلاً يجب أن يزوره . والثاني بأنه قد اشترى خمسة أزواج من الثيران ويجب أن يجربها . أمّا الثالث فبرّر غيابه بالزواج الذي أقدم عليه . وآخرون عاملوا الخدم باحتقار ، فلم يحضر أحد من المدعوين .

فغضب الأمير وأمر خدمه بالذهاب إلى الشوارع والساحات العامة في المدينة ، ودعوة الفقراء والعميان والمشوهين وكل مَنْ أصيب بعاهة ما ، لأن المصاريف قد أنفقت ، ففعل الخدم . وبقيت بعض المقاعد فارغة . فأرسل الأمير خدمة مجدداً ليفتشوا في الطريق وعلى طول الأماكن المسيجة ، وأن يأتوا بكل مَنْ يصادفونه هناك ، حتى يمتلىء البيت .

« وكذلك ملكوت الله .

« إن الأهداف الحقيرة بالنسبة إلى الكثيرين ذات أهمية تفوق أهمية دعوتهم السامية . والكثيرون ممّن وضعتهم الطبيعة أو الحظ في وسط دائرة السلطة العليا ، يدعون فرصة عمل الخير العميم تفوتهم ، بطريقة لا تُغتفر .

(٨٩) متى ٢٢ .

وغالباً ما تكون الاستقامة منفية في الأكواخ الحقيرة أو متروكة للعقول المحدودة . القيام بالتضحيات من أهم المميزات الأساسية لمواطن مملكة الله .

« مَنْ يعتبر أن الابن أو الأخ أو الزوج أو الأب ، والسعادة أو الحياة ، أعزّ من الفضيلة ، مثل هذا ليس مؤهلاً لأن يعبّد لنفسه طريقاً نحو الكمال أو لأن يقود الآخرين فيها . فمَنْ يريد العمل من أجل الآخرين يجب أن يفحص قواه أولاً ليرى إذا كان قادراً على ذلك .

« وكما أن الانسان الذي يبدأ ببناء منزله ، دون أن يحسب الكلفة كلها مسبقاً ، يضطر إلى أن يترك البناء ناقصاً ويصبح سخرية للناس ؛ وكما أن الأمير قبل أن يقدم على الاشتباك مع الأمير الآخر ، يفحص قواته ، فإذا لم يجدها بمستوى قوات الأمير الآخر ، يسعى إلى الصلح معه ، فكذلك حال مَنْ يرغب في تكريس نفسه لاصلاح البشر ، يجب أن يفحص أولاً ما إذا كان خليقاً بأن يتخلى ، في هذا الكفاح ، عن كل ما يقدّم له بعض المتعة » .

وهنا أيضاً حنق الفريسيون[٩٠] لوجود العشارين والخطأة بين المستمعين إلى يسوع ، دون أن يطردهم . فقال يسوع :

« إذا ضاع خروف من قطيع الراعي ، أفلا يُحس بالفرح عندما يجده ؟ وإذا أضاعت امرأة قطعة من النقود ، أفلا تبحث عنها بعناية ؟ وعندما تجدها ، أفلا تكون سعادتها بالقطعة المستعادة أعظم من سعادتها بالقطع الأخرى التي لم تضعها ؟ أفلا يحس البشر الصالحون بفرح مماثل إذا رأوا أحداً من البشر الضالين عائداً إلى الفضيلة ؟ أريد أن أروي لكم قصة :

« كان لرجل ابنان ، فطلب أصغرهما نصيبه من الميراث ، فقسمه الوالد بينهما . وبعد بضعة أيام جمع الابن الأصغر أمواله وسافر إلى بلد بعيد حتى يستطيع التمتع بها بحرية وحسب ميوله . وهناك انفق ثروته كلها في

(٩٠) لوقا ١٥ .

حياة الفجور . فأصابه البؤس الذي زادت منه مجاعة كبيرة حصلت هناك . وأخيراً وجد لنفسه مكاناً عند رجل أرسله إلى الحقول ليرعى الخنازير ، فاضطر إلى أن يقتسم وايّاها الغذاء المؤلف من البلوط . وذكّره مصيره الحزين بمنزل والده . وقال في نفسه : « كم يفضلني أُجَراءُ أبي الذين لا ينقصهم الخبز أبداً ، أمّا أنا فأهلك من الجوع . أريد أن أعود إلى أبي واعترف له : يا أبتاه ! لقد خطئت إلى السماء وإليك ، ولست مستحقاً أن أدعى لك ابناً . فاقبلني كبعض اجرائك ! » .

« ثم نفّذ ما فكر فيه . ورآه أبوه قادماً من بعيد ، فركض نحوه وألقى بنفسه على عنقه وأخذ يقبله . فقال ذلك التاعس التائب :

« واحسرتاه ، أن خطاياي تجعلني غير مستحق أن أُدعى لك ابناً » .

« ولكن الأب أمر خدمه أن يقدموا للابن اجمل ثوب وأن يعطوه حذاء . وقال : « اذبحوا العجل المسمّن . فإننا نريد أن نفرح جميعاً ، لأن ابني الذي كنت اعتبره ميتاً قد عاش . إنه كان ضالاً فوجد ! » .

« وفي هذا الوقت عاد الابن الأكبر من الحقول . وما كاد يقترب من المنزل حتى سمع الفرح الصاخب ، وسأل عمّا حدث . فلما أخبره أحد الخدم غضب ، وأبى أن يدخل إلى المنزل . فخرج الأب وألحّ عليه أن يدخل . لكن الابن رفض أن يسمع شيئاً وقال :

« إنا عندك منذ سنين ، اعمل من اجلك وانفذ ارادتك في كل شيء ، ولم تعرض عليّ مرة أن أتلهى مع أصدقائي . ويكفي أن يأتي هذا الابن ، الذي بدّد ثروته مع البغايا ، حتى تقيم له مأدبة ! » .

« فقال الأب : « يا بني ، أنت معي دائماً ، ولا يعوزك شيء ، وكل ما هو لي فهو لك . يجب أن تفرح وتغتبط لأن أخاك الذي كان ضالاً قد وجد نفسه ، والذي تخلينا عنه قد تعافى » .

وفي مناسبة أخرى لا نعرفها ، روى يسوع لأصدقائه القصة التالية :

« كان لرجل غني وكيل(٩١) . فنقل إليه أنه يبذر الأموال التي أمّنه عليها . فدعاه سيده وقال له :

« ما هذا الذي اسمعه عنك ! أدِّ حساب وكالتك ، فلا يصح أن تكون لي وكيلاً بعد اليوم » .

« ففكر الوكيل في ما عليه أن يفعله ؛ فإنه فقد عمله ، ولا يقوى على العمل كأجير ، ويستحيي من الاستعطاء . وأخيراً وجد وسيلة للتخلص من الورطة ، بأن يجعل من مديني سيّده أصدقاء له حتى يقبلوه لديهم عندما يضطر إلى ترك عمله . فدعاهم واحداً بعد الآخر .

« وأعطى الأول الذي كان عليه مئة برميل زيتاً ، صكاً بخمسين برميلاً فقط . وجعل دين الآخر ثمانين مداً حنطة بدلاً من مئة . وهكذا فعل مع الآخرين . فلما علم السيد بذلك فيما بعد ، اعترف للوكيل الخائن بذكائه . ذلك أن البشر الشرفاء غالباً ما يتفوّق عليهم الخبثاء ، لأن دهاء هؤلاء لا يجعلهم يترددون في خيانة الأمانة .

« إنني استخلص لكم من هذه القصة النصيحة التالية : استخدموا فكركم الثاقب ، واستعملوا المال الذي يمكن أن يكون لديكم من أجل اتخاذ أصدقاء من البشر ، وخاصة من التعساء . إنما ليس على حساب الاستقامة كما فعل هذا الوكيل الخائن . فمَنْ لا يكون أميناً على القليل لن يكون أميناً على الكثير . وإذا لم تتمكنوا من الاستقامة في مسائل المال ، فكيف ستكونون عندما يتعلق الأمر بالصالح الانساني الأسمى ؟

« إذا تمسكتم بشيء ، وتعاطيتم معه وكأنكم غرباء ، إلى درجة نسيان الفضيلة بسببه ، فماذا ينتظر منكم أن تفعلوا أكثر من ذلك ؟ لا تجعلوا هدف حياتكم الأسمى العمل لمصلحتكم ولخدمة الفضيلة ، لأنها أمران متناقضان » .

---

(٩١) لوقا ١٦ .

وكان بعض الفريسيين يستمعون إلى كل ذلك وهم من محبي المال ، فسخروا من يسوع لانتقاصه من قيمة الغنى إلى هذا الحد . فالتفت يسوع نحوهم وقال :

« أنتم تدأبون لكي تظهروا أمام عيون البشر بمظهر القداسة ، ولكن الله يعلم ما في قلوبكم . من يظهر عظيماً ومُعتبراً استناداً إلى رأي الحواس ، سيتلاشى في عجزه التام أمام الله .

« كان رجل غني يلبس الأرجوان والحرير ، ويصنع كل يوم الكثير من الطعام الفاخر . وأمام بابه كان يجلس في الغالب فقير يدعى لعازر ، وجسده مريض ومليء بالقروح . ولم يكن أحد يخفف عنه . وكانت الكلاب تأتي أحياناً فتلحسه . ويفرح إذا استطاع تسكين جوعه بفتات مائدة الغني . ومات المسكين ، وهو يسكن الآن في مقام السعداء . وبعد ذلك مات الغني فدفن بأبهة .

« ولكن نصيب الفقير لم يكن نصيبه . وعندما رفع عينيه وشاهد لعازر عند إبراهيم ، صرخ : « ارحمني يا ابتِ ابراهيم ، وأرسل لعازر ، فما يعزّيني في عذابي سوى تلطيف الآلام ، كما يُبرِّد المحموم بقطرة ماء » .

« فأجابه إبراهيم : « تذكر يا بنيّ أنك نلت نصيبك من الخير في الحياة الأخرى ، أمّا لعازر فقد نال الشقاء . إنه يتعزّى الآن ، أمّا أنت فتتعذّب » .

« فقال : « أسألك إذاً يا ابتِ أن ترسله إلى بيت أبي ، لأن لي خمسة أخوة ، فليخبرهم بما حلَّ بي ولينذرهم حتى لا ينالوا هم أيضاً مصيراً كهذا » .

« فقال إبراهيم : « إنهم يمتلكون ناموساً في عقلهم . وعندهم تعليم البشر الصالحين ، فليستمعوا إليهم » .

« فقال الشقيّ : « هذا لا يكفيهم . ولكن إذا خرج إنسان من القبر

وتراءى لهم ، فانهم يصيرون أخياراً بالتأكيد » .

« فأجابه إبراهيم : « ما أُعطي للانسان هو ناموس عقله . ولن تبلغ إليه أية معرفة أخرى ، لا من السماء ولا من القبر ، لأنها تتعارض مع روح ذلك الناموس الذي يفرض خضوعاً حراً وليس خضوعاً عبودياً ، مغتصباً بالخوف » .

وفي مناسبة أخرى ، مجهولة أيضاً[٩٢] ، طلب أصدقاء يسوع منه أن يعزِّز شجاعتهم وثباتهم . فأجاب :

« لا شيء يمكنه أن يفعل ذلك سوى التفكير في واجبكم وفي الهدف الأسمى وفي المصير المعطى للانسان . وبهذه الطريقة لا تعتقدون مطلقاً أنكم قد بلغتم نهاية عملكم ، فحقَّ لكم أن تتمتعوا منذ الآن . فعندما يعود الخادم من الحقول إلى المنزل لا يقول له سيّده : « إذهب الآن وأرح نفسك » ، بل « حضِّر لي طعامي الآن واخدمني ، وبعد ذلك تأكل أنت » . وعندما يفعل الخادم ذلك ، لا يعتقد سيده أن عليه أن يشكره على ما قام به .

« وكذلك أنتم ، فعندما تفعلون ما يجب عليكم أن تفعلوه ، لا تقولوا : « لقد فعلت أكثر من الضروري ، ومرَّ زمن العمل الآن ، ويجب أن يبدأ زمن الراحة » ، بل قولوا : « إننا لم نفعل سوى واجبنا » .

ومرةً أخرى سأل الفريسيون ـ الذين لا يستطيعون التحرر من تصورهم الحسيّ لملكوت الله ـ سألوا يسوع الذي كان يتكلم دائماً على هذه الفكرة : « متى سيأتي ملكوت الله ؟ » .

فأجابهم : « إن ملكوت الله لن يظهر بأبهة أو بعلامات خارجية . ولا يمكن أن يقال : « أنظر ، إنه هنا أو إنه هناك » ، لأن ملكوت الله يجب أن يؤسس في داخل نفوسكم » . ثم توجه إلى تلاميذه :

(٩٢) لوقا ١٧ : ٥ .

« أنتم أيضاً ترغبون دائماً في رؤية ملكوت الله مقاماً على الأرض . وغالباً ما يُقال لكم أن ثمة أخوية سعيدة مماثلة قائمة هنا أو هناك بين أشخاص يخضعون لناموس الخلقية . لا تركضوا وراء مثل هذه السرابات . ولا تنتظروا رؤية ملكوت الله في وحدة خارجية مشرقة بين بعض البشر تحت شكل دولة ، ولا في أي مجتمع تحت سيطرة الشرائع العامة لاحدى الكنائس . فليست هذه الحالة الهادئة والمشرقة هي مصير مواطني ملكوت الله الحقيقيين الفاضلين ، بل الاضطهاد الذي يأتي غالباً من أشخاص مثل اليهود الذير يفاخرون بكونهم من مواطني مثل ذلك المجتمع .

« فأي شخصين يشهران الايمان نفسه ، وينتميان إلى الكنيسة ذاتها ، يمكن أن يكون أحدهما صالحاً والآخر سافلاً . فلا تستمروا في التعلق بالشكل الخارجي ! لا تتركوا أنفسكم تنزلق إلى طمأنينة متوانية ، بشعوركم أنكم بمراعاتكم الدقيقة للشكل تؤدون واجبكم ، وبهذا تجد محبة الحياة واللذة شبعها . فمَنْ لم يكن قادراً على التضحية بهذا الحب من أجل الواجب ، يكون بذلك قد جعل من نفسه غير مستحق للواجب .

« وكما أن المثابرة يجب ألاّ تفارقكم[٩٣] إذا رأيتم أن آمالكم باكتساب الخير بالنضال لم تتحقق خلال فترة طويلة ، فيؤدي ذلك إلى قراركم أن تسبحوا مع التيار الكليّ للفساد ، لأنكم مرهقون ومتكدرون ، وكما أن استقامة القاضي ليست هي التي تجعل أحد أتباعه مفضلاً لديه ، بل رغبته في التخلص من طلباته الملحة ، فكذلك أنتم أيضاً تصنعون الخير الكثير بمثابرتكم . فإذا أدركتم بكل نفسكم عظمة الهدف الذي يحدده الواجب ، فإن جهودكم ، مثل الهدف ، تستمر إلى الأبد ولا تضعف مطلقاً ، سواء أرأيتم نضوج الثمار في هذه الحياة أم لم تروها ! » .

ولأجل الفريسيين الذين يعتقدون أنهم كاملون ، فيحتقرون البشر الآخرين بسبب هذا الادعاء ، روى يسوع القصة التالية :

(٩٣) لوقا ١٨ .

« ذهب رجلان إلى الهيكل للصلاة ، أحدهما فريسي والآخر عشار . فصلّى الفريسي بصوت مرتفع قائلاً :

« أشكرك اللّهم على أنني لست كسائر الناس ، لا كهذا العشار ، لصاً أو ظالماً أو زانياً . فأنا أصوم في الأسبوع مرتين ، واشترك في الخدمة الإلهية بانتظام ، وأؤدي العشر لهيكلك بنزاهة » .

« أمّا العشّار فوقف بعيداً عن هذا القديس ، ولم يجرؤ على رفع عينيه نحو السماء ، بل كان يقرع صدره ويصلي بحرارة :

« اللّهم ، ارحمني أنا الخاطىء ! » .

« أقول لكم إن هذا عاد إلى منزله وقد نال ضميره تعزية أكثر من الفريسي » .

وجاء أحد الوجهاء الشبان إلى يسوع وقال[٩٤] :

« أيها المعلم الصالح ، ماذا يجب أن أفعل لأكون فاضلاً ، واستحق أمام الله السعادة القصوى بعد هذه الحياة ؟ » .

فأجابه يسوع : « لِمَ تدعوني صالحاً ؟ فلا صالح سوى الله . أنت تعرف جيداً الوصايا التي يلقنها معلموكم : « لا تزن ، لا تقتل ، لا تشهد بالزور ، اكرمْ أباك وأمك » .

عند ذاك اجابه الشاب :

« لقد راعيت ذلك منذ صباي » .

فقال يسوع : « حسن ، ولكن إذا احسست أن باستطاعتك أن تفعل أكثر من ذلك ، فاستعمل غناك في نجدة الفقراء ، وحثّ على الخلقية ، وكن مساعداً لي في ذلك » .

(٩٤) لوقا ١٨ : ١٨ .

فحزن الشاب عند سماعه هذا ، لأنه كان غنياً جداً . فلاحظ يسوع ذلك وقال لتلاميذه :

« ما أعظم القوة التي تورّط بها محبة المال الانسان في حبالها ! وما أثقل القيد الذي تكبّل به الفضيلة ! الفضيلة تقتضي التضحيات ، ومحبة المال تطلب دائماً مكاسب جديدة . تلك تتطلب أن نضع حداً لطموحاتنا ، وهذه تريد أن توسع وتزيد في ملكيتها » .

فسأله أصدقاؤه :

« ولكن كيف يمكن أن نأمل ألاّ تجعل نزعة الطبيعة الانسانية هذه الخلقية مستحيلة ؟ » .

فأجاب يسوع :

« إن تناقض هذه النزعات أُلغي عندما اعطى الله إحداها سلطة تشريعية محضة تأمر بالواجب : هذه السلطة تسعى إلى أن تصبح متفوقة ، والله أعطاها القوة لأن تصبح كذلك » .

فقال بطرس ، أحد أصدقاء يسوع :

« أنت تعلم أننا قد تركنا كل شيء حتى نركن إلى تعليمك ، ونكرّس أنفسنا للخلقية وحدها » .

فقال يسوع : « لأجل كل ما تركتموه ، فإن الشعور الذي اكتسبتموه بعيشكم من أجل الواجب الوحيد يكون تعويضاً نفيساً لكم ، في هذه الحياة وفي الأبدية كلها » .

ووصل يسوع إلى ضواحي أورشليم(٩٥) مع تابعيه ، وهم الاثني عشر الذين اختارهم . فاطلعهم على احساساته الداخلية الكئيبة عن الطريقة التي

(٩٥) لوقا ١٨ : ٣١ ؛ متى ٢٠ : ١٧ .

سيستقبل ويعامل بها في أورشليم ، تلك الاحساسات المتناقضة تماماً مع اعتقاد تلاميذه بما سيحصل سواء حين وصوله إلى أورشليم أو إبّان اقامته فيها .

فحتى هؤلاء التلاميذ الذين نعموا برفقة يسوع يوماً بيوم وسمعوا تعليمه ، كانوا يعلّلون النفس في رؤوسهم اليهودية بأن يسوع سيظهر علناً أمام الشعب كملك ، فيعيد بريق الدولة اليهودية واستقلالها عن روما . وأنه سيعوض الحرمان الذي كابدوه ، بصفتهم مساعديه وأصدقاءه ، باعطائهم سلطة ومجداً . ولم يكونوا قد أخمدوا هذه الآمال بعد . ولم يتكيفوا مع المعنى الروحي للملكوت الله باعتباره سيادة القوانين الخلقية على البشر .

ودنت أم يوحنا ويعقوب من يسوع وارتمت على قدميه . فلمّا سألها عن حاجتها ، ظنت أنها اقتربت ، وولديها ، من تحقيق أمانيهم ، فطلبت منه :

« عندما(٩٦) تنشىء مملكتك ، ارفع ابنيّ إلى المقام الذي يأتي بعد مقامك مباشرة » .

فأجابهم يسوع :

« إنكم لا تعرفون ما تسألون . هل أنتم مستعدون للحياة من أجل الواجب الذي اضطلعتم به لاصلاح البشر ، ومقاسمتي مصيري ، مهما يكن ؟ » .

فأجابوا وهم يعتقدون أن هذا المصير لا يمكن أن يكون إلا مصيراً مشرقاً :

« أجل ! نحن مستعدون ! » .

فقال يسوع :

(٩٦) نول (عندما تنشىء) . روك : (إذا انشأت) .

« قوموا بواجبكم إذاً ، واخضعوا بهدوء لمصيركم . ولكن لا تنتظروا رؤية آمالكم التي اظهرتموها محققة . فلا يحدد قيمتكم أمام الألوهة سوى طهارة عواطفكم المكشوفة أمام الله ، وليس أمامي » .

وغضب التلاميذ الآخرون لطلب الأخوين . فحذّرهم يسوع قائلاً :

« أنتم تعلمون أن الرغبة في السيطرة شهوة مليئة بالاغواء ، وشائعة بين البشر . وهي تتجلّى في أوسع حلقات الحياة وأضيقها على السواء ! فلتكنْ مقصاة عن جماعتكم ! تمسكوا بمحبة بعضكم بعضاً ، وخدمة بعضكم لبعض ، كما أن هدف حياتي لم يكن مطلقاً أن آمر الآخرين ، بل أن أخدم الانسانية ، إلى درجة التضحية بحياتي من أجلها » .

ورغب رفاقه في أن يعرفوا ما إذا كان سيعطيهم نصيباً بارزاً من سلطانه الذي أصبح وشيكاً ، بسبب صداقته لهم وعطفه عليهم ، فحدثهم عن اختلاف قيمة البشر بالمثل التالي :

« ذهب أحد الأمراء إلى بلد بعيد ليتولى الحكم . وقبل أن يغادر البلد الذي كان سيِّدَه سابقاً ، عهد إلى خدمه بعشر وزنات حتى يتاجروا بها . وأرسل أهل بلده في اثره وَفْداً ليقول له إنهم لن يعترفوا بامارته عليهم . ورغم ذلك فإنه حفظ العرش بعد رجوعه ، ثم طلب من خدمه أن يؤدوا الحساب عن المال الذي عهد به إليهم . فقال الأول :

« لقد ربحت عشر وزنات بالوزنة التي سلّمتها إليّ » .

فأجابه الأمير : « جيّد ، لقد أحسنت ادارة القليل الذي اعطيتك اياه ، أريد أن اقيمك على الكثير ، فأعهد إليك بحكم عشر مدن » .

وربح الثاني بالوزنة خمس وزنات ، فأقامه على حكم خمس مدن . وقال خادم آخر :

« إنني أعيد إليك الوزنة دون أن أفقدها . لقد حفظتها بعناية ، وخفت

أن أجازف بها هباءً . فأنت سيّد قاسٍ ، تريد أن تأخذ ما لم تستودع ، وتحصد ما لم تزرع » .

فأجابه الأمير : « إن تبريرك يدينك . فما دمت تعلم أنني رجل قاس ، وأنني أريد أن أحصد ما لم أزرع ، فلماذا لم تعط أموالك لبعض الصيارفة ؟ حتى يمكنك أن تعيده إليّ مع الفائدة . لقد فقدت مالك ، ويجب أن يكون لِمَنْ ربح الوزنات العشر » .

فتعجب الخدم الآخرون لرؤيتهم صاحب الوزنات العشر يأخذ هذه الوزنة أيضاً .

ولكن الأمير قال لهم : « مَنْ يحسن استعمال ما يُعهد به إليه يُعطى المزيد أيضاً . أمّا الذي يسيء استعماله ، أو الذي لا يستعمله على الاطلاق ، فيكون بعمله هذا غير مستحق لما أُعطي له . والآن ، أحضروا أمامي أولئك الذين رفضوا اطاعتي حتى أعاقبهم » .

وكما فعل هذا الأمير ، فإن الله يحكم في قيمة البشر بحسب استعمالهم المخلص للقوى التي اعطيت لهم ، واطاعتهم للقوانين الخلقية التي يجدون أنفسهم خاضعين لها .

وهنا أيضاً (وكان يسوع في أريحا التي تبعد عن أورشليم مسيرة ست ساعات) أظهر الفريسيون من جديد استهجانهم لنزول يسوع في منزل أحد العشارين . وكان اسمه زكّا . فقد رغب في الاقتراب من يسوع ، ولكنه لم يتمكن بسبب الجمع ولأنه قصير القامة ، فصعد إلى شجرة . وفوجىء بالتكريم الذي خصّه به يسوع عندما اختار منزله للاستراحة . واستطاع أن يتصور الفكرة التي سيكوِّنها يسوع عنه ، بما أنه علم المهنة التي مارسها حتى ذلك اليوم ، وشعر أنه قد يظهر له بمظهر ليس في صالحه ، فأعلم يسوع أنه قد أصلح طريقة تفكيره ، وقال له :

« سأعطي الفقراء نصف الثروة التي أملكها ، وإذا كنت قد استغللت

أحداً ، فسأصلح الضرر أربعة أضعاف » .

فأبدى يسوع ارتياحه لعودته إلى الاستقامة ، وأظهر لـه أن هدفـه على الأرض هو قيادة البشر في هذا الطريق .

واقترب عيد الفصح[٩٧] ، فكان معظم اليهود موجودين في أورشليم . وأقام يسوع بضعة أيام بالقرب منها ، في مدينة تُدعى افرام ، وفي بيت عنيا بالتحديد[٩٨] .

وأثناء احدى وجبات الطعام التي أعدت هناك ، حضرت امرأة تدعى مريم ، وهي صديقة يسوع ، فدهنت قدميه بطيب غالي الثمن ثم مسحتها بشعرها . ولاحظ يهوذا ، احد رسل يسوع ، وهو الذي يدير مال الجماعة ، أنه كان من الأفضل بيع هذا الطيب وتوزيع ثمنه على الفقراء . وكان يأمل في وضع هذا المال في كيسه ، لأنه ما كان لينسى نفسه حين توزيعه على الفقراء . ولكن يسوع لفته إلى عدم إحزان قلب مريم بتأنيبها ، فقد لمس في عملها تعبيراً عن صداقتها ، لأن هذا العمل كان شبيهاً باظهار المحبة نحو الأموات بتحنيطهم . أمّا يهوذا فبامكانه أن يظهر في كل مناسبة هذه الرحمة التي يدعيها نحو الفقراء .

وفي هذه الأثناء[٩٩] كان المجمع الكبير ، الذي ينتظر قدوم يسوع إلى العيد مثل سائر اليهود ، قد اتخذ قراراً بالقاء القبض عليه في تلك المناسبة والعمل من أجل الحكم عليه بالموت . ولكنهم قرروا تأجيل ذلك إلى ما بعد العيد ، خوفاً من أن يحاول مواطنوه الجليليون ، الحاضرون هناك ، اطلاق سراحه . واتخذ المجمع الكبير ترتيباته حتى يكون مستعداً[١٠٠] في اللحظة

(٩٧) يوحنا ١١ : ٥٤ .

(٩٨) يوحنا ١٢ .

(٩٩) متى ٢٦ : ٣ .

(١٠٠) يوحنا ١١ : ٥٦ ـ ٥٧ .

التي يُشاهد فيها يسوع في الهيكل . لكن المكلَّفين بمراقبته كانوا مرتبكين لأنهم لم يروه في أيام العيد الأولى .

وبعد ستة أيام من هذه المأدبة وصل يسوع إلى أورشليم ، وما أن تبيَّن المدينة حتى دمعت عيناه ، فقال :

« ليتكِ فهمتِ ما هو المفيد لخلاصكِ ! ولكنه حجب عنكِ ، لأن كبرياءك واصرارك على أحكامك المسبقة وتعصبك ستحرض اعداءك ضدك . وسيحاصرونك ويطبقون عليك من كل جانب ، إلى أن تهدم دولتك ودستورك ، وهما سبب كبريائك ، وتدفنين تحت ركامها ، دون أن تنالي الاحساس والمجد بأنك قد متِّ في دفاع نبيل عن شيء عظيم وخيرٍ » .

وكان يسوع صاعداً على حمار حسب عادة الشرقيين فجاءه جمع من الناس الذين يعرفونه ، ورافقوه وأغصان الزيتون بأيديهم . فدخل المدينة وسط أغانيهم وتهليلاتهم .

ولم يبق يسوع ليلاً في أورشليم بل في بيت عنيا[١٠١] . ولكنه عاد في الصباح إلى أورشليم ، وظهر أمام الشعب في الهيكل حيث أخذ يعلم .

وسعى أعداؤه إلى توريطه بأسئلة محرجة . وكان قصدهم أن يجدوا حجة ليشكوه[١٠٢] من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، أن يجعلوا الشعب يكرهه ، وهو الأمر الذي لم يكونوا مطمئنين إليه . وزاد من مخاوفهم الاستقبال الكبير الذي لقيه عند وصوله إلى المدينة .

ففي أحد الأيام ، وهو واقف في الهيكل يعلِّم جمعاً من المستمعين ، سألوه عن السلطة التي بموجبها سمح لنفسه أن يعلم الشعب ؟ فأجابهم يسوع :

(١٠١) متى ٢١ : ١٧ .

(١٠٢) لوقا ٢٠ .

« اسمحوا لي ، عوضاً عن الجواب ، أن أسألكم سؤالاً آخر : هل كانت حماسة يوحنا للحقيقة والفضيلة هي السبب الذي دفعه إلى التعليم ، أم أنه تبع بتعليمه أهدافاً أنانية ؟ » .

ففكر الذين سألوه :

« إذا أجبنا عن السؤال الأول بالإيجاب ، فإن يسوع سيسألنا : « فلماذا إذاً لم تستمعوا إليه ؟ » وإذا أجبنا بالإيجاب عن السؤال الثاني فإننا نثير الشعب ضدنا » . فقالوا انهم لا يعلمون .

فقال لهم يسوع : « وأنا أيضاً لا أستطيع أن أجيب عن سؤالكم . ولكن احكموا أنتم :

« كان لرجل ابنان ، فقال للأول أن يذهب إلى الكرم ويعمل فيه[103] فقال انه لن يذهب . ولكنه ندم ثم ذهب إلى الكرم . وقال للثاني مثل ذلك . فأبدى للحال همّة ووعده بالذهاب . ولكنه لم يذهب . فأيهما أظهر طاعة لأبيه ؟ » .

فقالوا : « الأول » .

فأجابهم يسوع : « وكذلك أنتم . فثمة بشر معروفون بكونهم فاسدي الخلق ، ولكنهم أصغوا إلى صوت الفضيلة عندما دعاهم يوحنا ، وهم يفوقونكم الآن بمشاعرهم الطيبة ، أنتم اللاهجين دائماً باسم الله والمدّعين أنكم لا تعيشون إلّا من أجل عبادته » .

ثم روى لهم يسوع قصة ثانية :

« غرس رجل كرماً عظيماً ، وسيّجه بالجدران وحصّنه ، وسلّمه إلى بعض الكرامين ليحرثوه ثم ذهب . وفي الخريف أرسل خدمه لأخذ نصيبه مما

(103) متى 21 : 28 .

أنتجه الكرم . ولكن الكرّامين أساؤوا معاملتهم غاية الاساءة . وكذلك كان نصيب الجماعة الثانية التي أرسلها صاحب الملك . فأرسل ابنه آملاً أن يحترمه الكرامون . ولكن هؤلاء فكروا في أنه الوريث ، وأنهم بموته يضعون يدهم على الملك كله . فقتلوه . وهنا سأل يسوع الذين حوله : ماذا يفعل صاحب الكرم .

فقالوا : « يعاقب الكرّامين بالقسوة التي يستحقونها ، ويعطي الكرم لكرّامين آخرين يقدمون إليه الثمر كما ينبغي » .

فقال يسوع : « وهكذا اليهود ، فقد أتيح لهم قبل سواهم من أمم الأرض ، أن ينالوا المفاهيم الصحيحة للألوهة ، ولمشيئتها بالنسبة إلى البشر . ولكنهم لم يقدموا الثمار التي تجعل الانسان مقبولاً أمام عيون الآلهة . ولهذا يستحيل أن تعتقدوا أنكم المفضلون عند الإله ، بسبب هذه الأقدمية وحدها . ولهذا أيضاً ، فمن الجريمة أن تسيؤوا إلى البشر الذين يشعرون أو يقولون لكم إن ثمة أموراً أسمى من هذه ، وهي التي تمنح الانسان قيمة حقيقية » .

وكاد أعضاء المجمع الذين أعطوه هذه الفرصة لتوبيخهم ، أن يلقوا أيديهم عليه لولا خوفهم من الشعب .

وكان بعض اليهود اليونانيين[104] قد جاؤوا أيضاً من أجل العيد ، وأرادوا مخاطبة يسوع . ويبدو أنهم توجهوا إلى بعض أصدقاء يسوع حتى يطلبوا منه أن يحادثهم . ولم يبدِ يسوع أي فرح ، لأنه ظنّ أنهم قد أتوا بالافكار اليهودية المعتادة عن الماسيّا ، وأنهم يريدون أن يتوسلوا إليه مسبقاً ، بصفته ملك اليهود وسيّدهم العتيد . فقال لتلاميذه في تلك المناسبة :

« يخطىء هؤلاء الناس إذا توهموا أنني أطمح إلى الظهور بمظهر الماسيّا كما يتصورونه هم ، ويخطئون إذا اعتقدوا أنني أطلب أن يخدموني ، أو أنني

(104) يوحنا 12 : 20 .

سأغترّ إذا تقدموا لـزيادة حـاشيتي . نكون أخـوة ، ومن جماعـة واحدة ، إذا أطـاعوا قـانون عقلهم المقـدس . وإذا اعتقدوا أن هـدفي هو المجـد والقوة ، فإنهم يتجاهلون المصير الأسمى للانسان ، أو يتصورون أنني أتنكر له . فكـما أن البـذرة الموضـوعة في الأرض تمـوت أولاً ، حتى تصعد نـواتهـا في سـاق ، كـذلـك أنـا أيضـاً ، لا أطلب أن أعيش حتى أرى الثمـار التي يهـدف إليهـا عملي ، وكذلك روحي ، فهي لم تنجز مصيرها في غشاء هذا الجسد .

« هل يجب أن أخون ما أعلم أنه هدفي ، حتى أحفظ هذه الحياة ؟ إنني أتأمل بحزنٍ النزعاتِ التي تتجه إليهـا مخططات مـوجهي هذا الشعب : إنهم يريدون انتزاع حياتي . فهل يجب عليّ ، من أجـل هذا الأمـر ، أن أرغب أو أن أطلب من الله : « أبتِ ، أنقذني من هذا الخـطر » ؟ لا ، لأن حماستي في دعوة البشر إلى الخدمة الحقيقية للألوهة والفضيلة ، هي التي تضعني في هـذا الموقف ، وأنا مستعد للخضوع إلى كل التبعات التي يمكن أن تنتج .

« أفهذا يناقض مرة أخرى تـوقعكم أن ماسيّـا الذي تنتـظرونه يجب ألاّ يموت ؟ وهل الحياة ، بحد ذاتها ، أمر عظيم الشأن في نـظركم ، والموت أمر مرعب جداً ، حتى أنكم لا تستطيعون التوفيق بين المـوت وبين فكـرتكم عن رجل يستحق احترامكم ؟ ولكن هل أطلب الاعتبار لشخصي ؟ وهـل أطلب الإيمان بي ؟ أو هل أريـد أن أفرض عليكم معيـاراً للقياس حتى تميـزوا قيمة البشر وتحكموا عليهم ، وكأنه اختلاق مني ؟ لا ، إن احترامكم لأنفسكم ، والإيمان بالنـاموس المقـدس لعقلكم ، والاصغاء إلى صـوت الحكم الداخـلي لنفـوسكم وإلى صوت الضـمير ، والمقياس الـذي يكـون هـو نفسـه مقيـاس الألوهة ، هذه الأمور هي التي أريد أن أوقظها فيكم ! » .

وأرسل الفريسيـون وأتباع هيرودوس بعض الناس إلى يسـوع ليدخلوا معه في حوار يمكن أن يقدِّم حجة للادعاء عليـه أمام السلطة الـرومانيـة[١٠٥] . وحتى نـدرك كم كان السؤال خـداعاً ، وبـأية بسـاطة يمكن أن يجرح يسوع

(١٠٥) لوقا ٢٠ : ٢٠ .

بجـوابه السلطة الـرومانيـة والاحكام المسبقـة لليهود في آنٍ ، يجب أن نتـذكـر طريقة التفكير اليهودية التي تعتبران دفع الجزيـة لأجنبي أمرٌ لا يُطاق ، لأنهم يريدون أن يدفعوا لإلههم وللهيكل .

فقال المرسلون :

« يا معلم ، إننا نعلم أنك صادق في ما تقول ، وأنك تتقيّد بـالحقيقة الصارمة ، ولا تحابي أي إنسان في مـا تقول . فقـلْ لنا : هـل يحق أن ندفـع الجزية للامبراطور الروماني ؟ » .

وعلم يسوع مخططهم ، فقال :

« أيهـا المـراؤ ون ، إلاَمَ تسعـون ، أإلى نصب فـخ لي[١٠٦] ؟ أروني ديناراً ! لمَنْ هذه الصورة ؟

فأجابوا : « للامبراطور » .

فقـال يسوع : « حسنـاً ، إذا كنتم تسلّمون لـلامبـراطـور النقـود التي تستعملونها ، فأدّوا إذاً للامبراطور ما هو لـلامبـراطـور ، ولإلهكم ما تستلزمـه عبادته » .

فاضطروا إلى الاكتفاء بهذا الجواب الذي لم يمنحهم أي مأخذ عليه .

وأراد الصدوقيون ، وهم طائفة من اليهود لا تؤمن بخلود النفس ، أن يجرِّبوا بدورهم آراءهم ضد يسوع . فقالوا له :

« إذا مـات إنسـان دون أن يتـرك ولـداً ، يجب عـلى أخيـه ، حسب شرائعنا ، أن يتزوج أرملته . وحصل أن امرأة تزوجت على هذا النحو سبعة

(١٠٦) في نص روك لا توجد فاصلة بعد (إلاَمَ تسعون) . فإذا حـذفنا هـذه الفاصلة من النص الألماني تأخذ الجملة معنى مختلفاً ، وهو التالي : (أيها المراؤ ون لمـاذا تسعون إلى نصب فخ لي ؟) .

إخوة واحداً بعد الآخر ، دون أن يخلفوا نسلاً . فلمَنْ تكون المرأة إذا كان البشر يعيشون بعد الموت ؟ » .

فأجاب يسوع على هذا الاعتراض الغبي :

« صحيح ان البشر يتزوجون في هذه الحياة ، ولكن ما إن يدخل الخالدون في جماعة الأرواح المجرَّدة ، حتى يفقدوا هذه الحاجات مع أجسادهم ! » .

وسمع أحد الفريسيين إجابات يسوع الموفقة على أسئلة الآخرين ، فسأله بدوره سؤالاً (من غير سوء نية على ما يبدو)[١٠٧] : « ما هو المبدأ الأسمى للخلقية ؟ » فأجابه يسوع :

« ثمة إله ، ويجب أن تحبّه بكل قلبك ، وأن تكرِّس له إرادتك ونفسك بالكلية ، وكل قواك . هذه هي الوصية الأولى » .

« والثانية ملزمة كالأولى ، وهي التالية : « أحببْ كل إنسان كنفسك » . ولا توجد وصية أسمى » .

فأعجب الفريسي بهذا الجواب ، وقال :

« لقد نطقت بالحق ، فتكريس نفسك لله ، ومحبتك قريبك كنفسك ، يفوقان كل الذبائح والبخور » .

فسُرَّ يسوع من مشاعر الرجل الطيبة ، وقال :

« لست بعيداً ، بهذه المشاعر ، عن أن تكون من مواطني ملكوت الله ، حيث لا تلتمس نعمته بالذبائح والكفارات ، أو بعبارة من أطراف الشفاه ، أو بالتخلي عن العقل » .

وكان في زاوية الهيكل صندوق تُلقى فيه التبرعات للهيكل[١٠٨] .

(١٠٧) روك : (بسوء نية على ما يبدو) .
(١٠٨) لوقا ٢١ : ١

فلاحظ يسوع بين الذين يضعون فيه نصيبهم ، امرأة فقيرة وضعت فلسين إلى جانب الأغنياء الذين يقدمون مبالغ كبيرة .

فقال : « إن هذه قد وضعت أكثر من الآخرين كلهم . فالجميع قد أعطوا مما يفيض عنهم ، أمّا هذه فإنها بالقليل الذي قدمته ، أعطت كل ثروتها » .

وانتهز يسوع هذه الفرصة لتحذير الشعب وأصدقائه من الفريسيين ، بسبب محاولات هؤلاء ضده[١٠٩] ، فقال :

« إن الفريسيين ومعلمي الشريعة جالسون على كرسي موسى . فراعوا الشرائع التي يأمرونكم بمراعاتها . أمّا قدوتهم وطريقة تصرفهم فلا تتبعوها ! لأنهم يتداولون شريعة موسى ولكنهم لا يحفظونها . فإنهم يتبعون في أعمالهم هدفاً وحيداً ، وهو التصنع أمام الناس بالمظهر الخارجي للاستقامة .

« تأكلون أموال الأرامل ، وتفرحون باستضافتهن لكم ، بحجة أنكم تصلّون معهن .

« أنتم تشبهون القبور المكلَّسة ، ظاهرها مزيّن ، والفساد يدب سريعاً في داخلها . تتصنّعون مظهر القداسة في ظاهركم ، أمّا باطنكم فرياء وظلم » .

وأجمل يسوع سمات عديدة أيضاً ، وأنّبهم عليها واحدة بعد الأخرى ، عندما كانت الفرصة تسنح لذلك .

وفيما كانوا يتجولون في أرجاء الهيكل المختلفة ، تحادث تلاميذ يسوع عن عظمته[١١٠] . فقال لهم إن لديه حَدْساً بأن هذه العبادة العظيمة جداً ، وهذه الأبنية ذاتها ستنتهي . مما أذهل أصدقاءه ، فلمّا صاروا وحدهم فيما بعد

(١٠٩) متى ٢٣ .
(١١٠) متى ٢٤ .

على جبل الزيتون المطل على أبنية الهيكل الجميلة ، وعلى قسم كبير من المدينة ، سألوه :

« متى سيحصل ما حدّثتنا عنه منذ قليل ؟ وما هي العلامات التي نعرف بها اقتراب مجيء مملكة ماسيًا ؟ » .

فأجابهم يسوع :

« هذا الانتظار لماسيًا مايزال يوقع أبناء أمتي في أخطار جسيمة . وبار باطه مع أحكامهم المسبقة الأخرى وتعصبهم الأعمى ، فإنه يهيء سقوطهم الكامل . وهذا الأمل الوهمي يجعلهم ألعوبة للدجالين المحتالين أو للحالمين فاقدي الرأس .

« فاحذروا أن يستولي عليكم أنتم أيضاً . سيقال غالباً : « إن ماسيًا المنتظر هنا ! » ، أو « إنه هناك ! » . وكثيرون سينتحلون اسم ماسيًا ، وينصّبون أنفسهم ، تحت هذا الاسم ، قادة للتمردات ومؤسسي شيع دينية . وكثيرون سيصنعون نبوءات ومعجزات ، حتى يخدعوا ، بقدر إمكانهم ، الصالحين أنفسهم .

« سيقال غالباً : « هناك في الصحراء سيظهر ماسيًا المنتظر ، أو أنه يمكث خفية هنا في الكهف » . فلا تدعوا مثل هذه الكلمات تجذبكم فتجرون وراءهم . إن تخمينات وشائعات مماثلة ستسمح بقيام تمردات سياسية وانشقاقات دينية . فيحصل تحزُّب ، وبروح هذا التحزب ، يحصل تباغض ويفضح واحدٌ الآخر . ويعتقد البعض أن لهم الحق في التضحية بأقدس واجبات الانسانية ، في سبيل هذا الحماس الأعمى لأسماء وكلمات .

« وبعد ذلك خراب الدولة ، وانحلال الرباطات الاجتماعية والانسانية ، ثم الوباء والمجاعة ، مما يوقع هذه البلدان الشقية بسهولة فريسة للأعداء الخارجيين . فويل للحوامل والرضّع آنذاك .

« لا تسمحوا لأنفسكم بالتحزُّب في هذه الاضطرابات . فسيصاب

الكثيرون بعدوى هذا الروح الخدّاع ، دون أن يعلموا كيف حصل ذلك . وكثيرون سيستولي عليهم هذا الاعصار ، فيبتعدون في كل خطوة عن روح الاعتدال ، ويرون أنفسهم في النهاية متورطين في الجرائم وفي خراب حزبهم ، دون أن يكون بإمكانهم التراجع .

« اهربوا ، وتجنبوا قدر استطاعتكم مسرح الفساد وفقدان الرحمة هذا ! تحرّروا من كل علاقات القربى ، ولا تؤجلوا ذلك متذرعين بتدبير هذا الأمر أو ذاك ، أو بإنقاذه . ومهما حصل ، ابقوا مخلصين بقوة لمبادئكم . عندما يهاجمكم روح التحزب ويؤلمكم ، بشّروا بالاعتدال ، وانصحوا بالمحبة والسلام ، ولا تهتموا بأيٍّ من هذه الأحزاب الدينية والسياسية .

« لا تظنوا أن تصميم الإله يتم بمثل هذه التجمعات الفوضوية ، أو في جماعات تحكم باسم شخص أو باسم إيمانه . هذا التصميم ليس وقفاً على شعب واحد ، ولا على إيمان واحد ، ولكنه يشمل الجنس البشري كله بمحبة متجردة . يمكنكم القول أن هذا التصميم قد تحقق ، عندما تصبح خدمة العقل والفضيلة هي المسلَّم بها والممارَسَة في كل أنحاء الأرض ، دون عبادة الأسماء والكلمات .

« ما يحفظكم من روح الانقسام ، ويجعلكم دائماً صامدين وشجعاناً ، هو الرؤية الثابتة لأمل الانسانية هذا ، وليس الأمل الوطني الباطل لليهود .

« فليستند هدوؤكم وشجاعتكم ، في كل هذه الانقسامات ، إلى فضيلة غير مشوهة . كونوا متيقظين حتى لا يدخل قلوبكم خلسة إحساس بالاكتفاء[١١١] ، مزيف وجبان ، إحساس يستند إلى تعلق بالصيغ الدينية ، أو إلى عبادة كلامية ومراعاة مفرطة لطقوس أية كنيسة .

« فسيكون هذا ، مثل عشر عذارى حملن مصابيحهن وخرجن لانتظار

---

(١١١) يوجد في نص روك عبارة موضوعة بين قوسين تكرر بطريقة مختلفة تماماً ، العبارة السابقة .

العريس حتى يأخذ عروسه إلى منزله [١١٢] . وكانت خمس منهن عاقلات قد تزوّدن بالزيت ، أمّا الخمس الأخريات الجاهلات فتهاملن في ذلك . وبعد انتظار طويل ، جاء العريس متأخراً في الليل ، فأردن الذهاب أمامه . وكانت اللواتي ليس لديهن زيت قد أسرعن إلى السوق لشرائه ، لأن الأخريات لم يستطعن إعارتهن منه ، فهو بالكاد يكفيهن .

« وفي أثناء غيابهن حضر العريس . فرافقته العذارى الخمس العاقلات إلى المنزل من أجل مأدبة العرس . أمّا الأخريات اللواتي اهتممن بالدعوة ، ولكنهن تهاملن في ما هو أساسي ، فأقصين عن المأدبة » .

« وكذلك أنتم ، فلا تعتقدوا أنه يكفي أن تنضموا إلى دين ما إذا نسيتم ما هو أكثر ضرورة ، أي ممارسة الفضيلة . لا تتوهموا أنه يكفي أن تسرعوا إلى جمع المبادىء عندما تكونون في ضيق ، أو عندما تقتربون من الموت . لا تفكروا في التزيّن بالمزايا الغريبة ، التي يعتقد كل منكم أنها صالحة له ، دون أن يستطيع نقلها إلى الآخرين ، فبإيمانكم بالكنيسة وحدها أو بأملكم الخدّاع في مزايا الآخرين ، لن تستمروا أمام قاضي العالم القدّوس .

« إنني أشبه حكمه بحكم الملك الذي جمع شعبه وفصل الصالحين عن الأشرار كما يفصل الراعي الكباش عن الحملان . وقال للصالحين :

« اقتربوا يا أصدقائي وابتهجوا بالسعادة التي تستحقونها . لأنني جعت فأطعمتموني ، وعطشت فسقيتموني . عندما كنت غريباً بينكم استقبلتموني ؛ عندما كنت عارياً كسوتموني ؛ عندما كنت مريضاً اعتنيتم بي ؛ وعندما سجنت زرتموني » .

« فسألوه متعجبين :

« يا سيد ، متى رأيناك جائعاً أو عطشان حتى نطعمك أو نسقيك ،

---

(١١٢) متى ٢٥ .

ومتى رأيناك غريباً أو مريضاً أو في السجن حتى نكسوك أو نستقبلك أو نزورك ؟ » .

« ولكن الملك أجابهم :

« كل ما فعلتموه إلى أحد أصغر إخوتي ، واخوتكم ، فهذا ما أجازيكم عليه ، كما لو أنكم فعلتموه لي أنا » .

« وقال للآخرين :

« ابتعدوا عني وتلقوا جزاء عملكم ، فعندما جعت أو عطشت لم تطعموني ولم تسقوني . وعندما كنت عارياً أو مريضاً أو في السجن ، لم تعتنوا بي » .

« فقال له هؤلاء أيضاً :

« متى رأيناك جائعاً أو عطشان أو عارياً أو مريضاً أو في السجن ، حتى يكون بإمكاننا أن نقدم لك أية خدمة ؟ » .

« فأجابهم الملك الجواب نفسه :

« كل ما لم تفعلوه لأحد الصغار ، فسأجازيكم عليه ، كما لو أنكم لم تفعلوه لي أنا » .

« وهكذا أيضاً سيلفظ قاضي العالم حكم الادانة على الذين يعبدون الإله من أطراف شفاههم ، آخذين مظاهر التقوى ، دون أن يعبدوه في صورته التي هي الانسانية » .

وكان يسوع يقيم في العادة أثناء النهار في مباني الهيكل وساحاته ، وفي الليل خارج المدينة ، على جبل الزيتون .

أمّا المجمع الكبير فلم يجرؤ على تنفيذ قراره بالقبض على يسوع ، أمام الشعب . ولهذا السبب لم يجدوا أفضل من العرض الذي قدمه لهم يهوذا ،

أحد أصدقاء يسوع الاثني عشر الحميمين ، بأن يدلّهم على مكان إقامة يسوع الليلية ، ويساعدهم في القبض عليه خفية ، مقابل مبلغ من المال .

ويبدو أن الطمع كان الهوى الأساسي ليهوذا . وهو طمع لم يدع مكاناً لأي مشاعر سامية في علاقته بيسوع ، لأنه كان الدافع الأساسي ليهوذا منذ أن صار تابعاً ليسوع ، وظن أن بإمكانه تحقيقه عندما يؤسس يسوع مملكته الماسياوية . ولما بدأ يتيقن أن هدف يسوع ليس تأسيس مثل هذه المملكة ، وأدرك أن أمله سيخيب ، سعى إلى الحصول على أكبر منفعة ممكنة من صداقته ليسوع ، فخانه .

وحسب عادة اليهود ، أعدّ يسوع عشاء فصحياً في أورشليم ، وكان لحم الغنم الطعام الأمثل فيه . وهو المساء الأخير الذي أمضاه مع أصدقائه ، فكرّسه بكامله من أجل أن يترك فيهم انطباعاً عميقاً .

ففي بداية العشاء ، نهض يسوع وخلع رداءه ، وشمّر عن ساقيه ، ثم تناول قماشاً وغسل أقدام أصدقائه (عمل يقوم به الخدم في العادة)[113] . ورفضَ بطرس أن يغسل يسوع قدميه ، فقال له إنه سيعلم السبب للحال . وبعد انتهائه قال :

« لقد رأيتم ما فعلت . أنا ، الذي تدعونني معلماً ، غسلت أقدامكم . لقد أردت أن أعطيكم مثلاً على الطريقة التي يجب أن تتصرفوا بحسبها فيما بينكم . الأمراء يحبون السلطة[114] ، ولهذا فإنهم يدعون أنفسهم محسنين إلى الجنس البشري . فلا تكونوا مثلهم . لا يَسْعَ أيٌّ منكم إلى التسلط على الآخرين ، ولا يبتغِ أحدكم أن يتجاوز الآخرين بخفة ؛ ولكن فليكن كل منكم لطيفاً وخدوماً ، كما بين الأصدقاء ، وعندما يؤدي أية

---

(١١٣) يوحنا ١٣ .

(١١٤) لوقا ٢٢ : ٢٥ .

خدمة ، فلا يقدمْها وكأنها صدقة أو تنازل منه للآخرين . إنكم تعرفون ذلك ، فطوبى لكم إذا فعلتموه أيضاً !

« أنا لا أقول هذا لكم جميعاً ، بل يمكنني أن أستعمل هنا ما قيل في مكان ما : « واحد من الذين يأكلون معي سيرفع قدمه عليّ ». لأن واحداً منكم سيسلمني » .

أحزنت هذه الفكرة يسوع ، وكدّرت أصدقاءه أيضاً . وكان يوحنا قريباً منه ، فسأله بهدوء عمَّنْ يكون ؟ فقال له يسوع :

« إنه الذي أقدّم إليه هذه القطعة من الخبز » . ثم مال بها إلى يهوذا ، قائلاً :

« ما تريد أن تفعله ، افعله بسرعة » .

ولم يفهم أحد من الآخرين معنى هذا .

ظنوا أنه يتعلق بمهمة ما ، لأن يهوذا كان يتولّى صندوق الجماعة . وتركهم يهوذا بسرعة خشية أن يوبخه يسوع أمام الجميع (إذْ رأى أن قصده ليس خافياً على يسوع) ، أو خوفاً من أن يتزعزع تصميمه إذا لبث هناك وقتاً طويلاً .

وحينئذٍ تابع يسوع :

« إن صديقكم ياأبنائي الأعزاء ، سيتمم مصيره قريباً . وسيستقبله أبو البشر في مساكن غبطته . قليلٌ من الوقت أيضاً ، وسأُرفَع عنكم . وعهدي لكم وصيةٌ واحدة أتركها لكم ، أن تحبوا بعضكم بعضاً مقتدين بمحبتي لكم . ولن توصفوا بأنكم أصدقائي إلاّ بهذه المحبة المتبادلة .

فسأله بطرس :

« إلى أين تنوي الذهاب ؟ أتريد أن تتركنا ؟ » .

فقال يسوع : « لا تستطيع أن ترافقني في الطريق التي سأسلكها » .

فأجابه بطرس : « لماذا لا أستطيع أن أتبعك ، إنني مستعد لبذل حياتي من أجل ذلك » !

فقال يسوع : « أتريد أن تضحي بحياتك في سبيلي ؟ أنا أعلم جيداً أنك لم تمتلك القوة لفعل ذلك بعد . ويمكن أن توضع تحت التجربة قبل أن يطلع النهار الجديد » .

« لا تذهلوا لأنني سأُفصَل عنكم . احترموا الروح الذي يقيم فيكم ، وتعلموا منه معرفة مشيئة الإله . فبهذا الروح وحده يمكن اعتباركم منتسبين إلى الإله ومن سلالته . وهو وحده الذي يفتح أمامكم الطريق التي تقود إلى الألوهة والحقيقة . اصغوا إلى هذا الصوت الأصيل(١١٥) . صحيح أن أشخاصنا تختلف وتنفصل لكن جوهرنا واحد . ولسنا بعيدين واحدنا عن الآخر .

« حتى الآن كنت معلمكم ، وحضوري هو الذي وجّه أعمالكم . إنني أغادركم ، ولكنني لا أترككم كالأيتام . إنني أذهب ، لكنني أترك لكم موجِّهاً في داخلكم . فقد أيقظت بذرة الخير التي أودعها العقل فيكم ، وذكرى تعليمي ومحبتي لكم . حافظوا على روح الحق والفضيلة هذا راسخاً فيكم ، فهو الروح الذي لا يُظهر البشر أي احترام له ، لمجرد أنهم لا يعرفونه ولا يبحثون عنه في ذواتهم .

« لقد صرتم أناساً يمكن تركهم لذواتهم ، دونما حاجة إلى وصاية . فلتدلكم خلقيتكم المتطورة على الطريق عندما لا أكون معكم . كرّموا ذكراي ، ومحبتي لكم ، بسلوككم طريق الاستقامة ، الطريق الذي قدتكم فيه . روح الفضيلة القديس سيحفظكم من الزلل في خطواتكم ، وسيعلمكم بكمالٍ كل ما لا تحتملون معرفته الآن ، وسيذكركم بكثير من الأشياء التي لم تفهموها بعد ، بإعطائها مدلولاً .

---

(١١٥) وردت هذه الجملة في نص روك بعد جملة (احترموا الروح الذي يقيم فيكم) .

« إنني أذهب وأمنحكم البركة ، ليست التحية التي نلقيها دون أن ترتبط بأي مدلول ، بل تلك التي أرغب أن تكون غنية بالثمار . وحتى بالنسبة إليكم ، من الأفضل أن أترككم ، فلا يمكن أن تحصلوا على الاستقلال وتتعلموا كيف تقودون أنفسكم إلّا بتجربتكم ونشاطكم الخاصين . يجب ألّا يملأكم ذهابي بالحزن ، بل بالفرح ، لأنني أبدأ طريقاً سامياً في عوالم أفضل ، حيث الروح يدخل إلى موطنه ، مملكة اللامتناهي ، ويرتفع بانخطاف سريع ، وأكثر حرية ، نحو الينبوع الأول لكل خير .

« لقد صبوت إلى السعادة بتناولي هذا الطعام معكم . فتداولوا الصحون والأكواب ولنجدد هنا عهد الصداقة » .

وحينئذٍ ، وكما تنشأ عند العرب في أيامنا رباطات الصداقة السرمدية بتناول الطعام من خبزة واحدة وكأس واحدة ، قسم يسوع الخبز بينهم ، على عادة الشرقيين ، وقال :

« عندما تأكلون معاً في حلقة الأصدقاء ، تذكروا أيضاً صديقكم ومعلمكم القديم . وكما أن الفصح بالنسبة إليكم هو رمز الفطير الذي تناوله آباؤكم في مصر ، والدّم ذكرى دم الذبائح التي سُفكت ، بمناسبة الميثاق الذي به (لوقا ١١ ، ٢٤ : ٨) عقد موسى عهداً بين يهوه وشعبه ، فكذلك تذكروا في المستقبل عند رؤيتكم الخبز جسدَ صديقكم ومعلمكم المقدم ذبيحة ، وعند رؤية كأس الخمر ، اذكروا دمه المسفوك !

« احفظوني في ذاكرتكم ، أنا الذي أعطيت حياتي من أجلكم ! ولتجعلكم ذكراي وقدوتي ، أقوياء في الفضيلة . إنني أراكم حولي كما لو كنتم براعم كرمة الحقل ، التي تتغذّى منها فتحمل الثمار ، ثم تنفصل عنها فتنضج الخير بقواها الحية الخاصة بها .

« أحبوا بعضكم بعضاً ، وأحبوا كل البشر كما أحببتكم أنا . إنني أقدم حياتي من أجل خير أصدقائي العظيم ، إثباتاً لمحبتي . لا أدعوكم تلاميذ أو طلاباً ، فهؤلاء ينفذون إرادة مدرسيهم ، وغالباً دون معرفة السبب

الذي من أجله يجب أن يتصرفوا على هذا النحو . أنتم بالغون فكونوا مستقلين واستمتعوا بالحرية الكامنة في إرادتكم الخاصة . ستحملون ثماراً بقوة فضيلتكم الخاصة ، إذا كان روح المحبة ، أي القوة التي تحيينا أنا وأنتم ، هو نفسه .

عندما يضطهدونكم ويسيئون إليكم ، تذكروا قدوتي ، وأن مصيري ومصير آلاف آخرين لم يكن أفضل . إذا اعتنقتم الشرور والأحكام المسبقة السائدة ، تجدون الكثير من الأصدقاء . ولكنكم ستُبغضون لأنكم أصدقاء الخير . حياة الانسان المستقيم تبكيت دائم للشرير ، الذي يشعر بها فتغيظه . وعندما يستنفد كل حجة لاضطهاد رجل الخير الذي لا يحمل أحكاماً مسبقة ، فإنه يجعل من الأحكام المسبقة والاضطهاد والشرور قضيةَ الله ، ومن اضطهاد البشر ، بسبب كرهه الخير ، خدماتٍ للألوهة .

« ولكن روح الفضيلة ، الشبيه بشعاع آتٍ من العوالم الفضلى ، سيحييكم ، ويرفعكم إلى ما فوق غايات البشر الحقيرة والفاسقة . أقول لكم ذلك مسبقاً حتى لا يفاجئكم . وكما أن ضيق المرأة التي تلد يتحول إلى فرح عندما تضع كائناً بشرياً في العالم ، فكذلك البؤس الذي تنتظرونه سيتحول إلى سعادة قصوى » .

ثم رفع يسوع عينيه نحو السماء وقال :

« يا أبتِ لقد أتت ساعتي . ساعة إظهار الروح النابع من لا تناهيك في كل كرامته ، وساعة العودة إليك . مصير هذا الروح هو الخلود والارتفاع فوق كل ما له بداية ونهاية ، فوق كل ما هو محدود . لقد أكملت مصيري الأرضي ، في أن أعرفك أنت يا أبتِ ، وأن أعرف القرابة بين روحي وروحك ، وأن أتشرّف بإخلاصي له ، وأن أجعل البشر أكثر نبلاً بإيقاظ الشعور بهذه الكرامة . محبتي لك زوّدتني بأصدقاء عرفوا أنني لم أشأ أن أفرض على البشر أموراً غريبة أو تعسفية ، ولكنني علمتهم ناموسك ، ذلك الناموس المقيم هادئاً في جميع القلوب ، والذي لا يتنكر[١١٦] له سوى البشر .

« لم يكن قصدي أن أحصل على المجد بواسطة أمور فريدة وخارقة ، بل أن أعيد الاحترام المفقود للانسانية التي أضاعت اعتبارها . موضوع فخري هو الخاصية الكليّة للكائنات التي وُهبت العقل ، وتنظيم الفضيلة المعطاة للجميع !.

« أيها الكائن المطلق ، احفظهم حتى يكون الناموس الأسمى الذي فيهم ، الناموس المسيطر عليهم ، هو حب الخير . وهكذا يكونون واحداً ، ويبقون متحدين بك وبي . إنني آتي إليك وأوجّه هذه الصلاة : فليدخل الاستعداد الشجاع الذي يحييني إليهم أيضاً . لقد علمتهم وَحْيَكَ ، فحفظوه ، لذلك أبغضهم العالم ، كما أبغضني أنا الذي يطيعك !

« أنا لا أطلب منك أن ترفعهم من هذا العالم . فلا يعرف أحد التقدم بطلب من هذا النوع أمام عرشك . ولكن قدّسهم بحقيقتك ، فإنها لا تشع إلاّ بناموسك . لقد تركت بين أيديهم الدعوة العلوية التي دعوتني إليها : تدريب البشر على الفضيلة ، إنها الدعوة التي تبعتها . فليتمموها بدورهم ، وليقيموا أصدقاء لا يجثون أمام أي صنم ، ولا يبنون وحدتهم على كلمات أو عقائد ، بل على الفضيلة والرغبة في أن يقتربوا منك أيها القدوس ! » .

ونهضت الجماعة بعد هذه المحادثة ، وتركت أورشليم كالمعتاد (كان الليل قد حلّ) فعبروا ساقية قدرون في حقل يدعى الجسمانية ، بالقرب من جبل الزيتون[١١٧] . وكان يهوذا يعرف مكان الاقامة الليلية هذا ، لأنه كان غالباً مع يسوع .

وقال يسوع لتلاميذه أنْ يبقوا في المكان ، أمّا هو فذهب مع ثلاثة منهم إلى مكان أكثر انفراداً حتى يستسلم لأفكاره . وهنا رجعت الطبيعة برهةً إلى

---

(١١٦) نول : (يتنكر له) . روك : (يبعده) .

(١١٧) لوقا ٢٢ : ٣٩ وما يقابلها .

حقوقها . واستولت على يسوع في وحدة الليل فكرة خيانة صديقه وظلم أعدائه وقساوة المصير الذي ينتظره ، فزعزعته وجزع منها . فطلب من تلاميذه أن يبقوا إلى جانبه ويسهروا معه . وكان يذهب من مكان إلى آخر وهو قلق ، ويتكلم معهم من حين إلى آخر ، ويوقظهم عندما ينامون ، ويعتزل من حين إلى آخر ، ويصلي أحياناً :

« يا أبتِ ، إنْ أمكن فأبعدْ عني كأس العذاب المرّة التي تنتظرني . ولكن فلتكنْ مشيئتك لا مشيئتي . وإذا لم يكن ممكناً أن أعفى من هذه الساعة . فإني أخضع لمشيئتك » .

وسال عرقه في نقط كبيرة .

ولّما عاد مجدداً إلى جانب تلاميذه ، وحثّهم على السهر ، رأى أناساً قادمين ، فنادى تلاميذه :

« هيا ، انهضوا ، فإن الذي خانني يقترب » .

وحينئذٍ اقترب يهوذا ومعه مسلحون يحملون مشاعل . فاستعاد يسوع رباطة جأشه الراسخة ، وتقدم للقائهم وسألهم :

« عمَّنْ تبحثون ؟ » .

فقالوا : « عن يسوع الناصري » .

فقال : « أنا هو » .

فلم يعرفوا ماذا يفعلون ، خشية أن يكونوا قد أخطأوا . فسألهم ثانية ، وأجابهم كما في المرّة الأولى ، وأضاف : « إذا كنتم تطلبونني ، فاتركوا أصدقائي » .

وهنا اقترب يهوذا ، وأشار إلى مرافقيه بالاشارة المتفق عليها ليعرفوا يسوع ، وهي أن يقول : « السلام عليك يا معلم ! » وأن يقبّل يسوع في الوقت نفسه . فأجابه يسوع : « أبقبلة تخونني أيها الصديق ؟ » .

وحينئذٍ أمسكه الجنود . فلمّا رأى بطرس ذلك ، استلّ سيفه وراح يضرب به يمنة ويسرة ، فقطع أُذُن عبد عظيم الأحبار . فقال له يسوع أن يبقى هادئاً : « دعْ هذا ، واحترم المصير الذي هيَّأته لي الألوهة » .

وهرب أصدقاء يسوع الآخرون وتفرّقوا لّما رأوا أن رجال العصابة التي قبضت على يسوع قد أوثقوه ثم اقتادوه ، باستثناء شاب استيقظ مذعوراً ولم يكن عليه سوى رداء ، فأراد أن يتبعه ، لكن الجنود أمسكوه ، ولم ينقذه إلاّ أن تخلّص منهم تاركاً لهم الرداء . وفيما هم سائرون قال يسوع لحرّاسه :

« لقد أتيتم إليّ بالسلاح ، حتى تمسكوني وكأنني لص . ولكنني كنت بينكم كل يوم ، أجلس مع الشعب في الهيكل ، ولم تقبضوا عليّ . ولكن نصف الليل ساعتكم والظلمة عنصركم » .

واقتيد يسوع أولاً إلى حنانيا ، عظيم الأحبار السابق ، وحمي قيافا . ثم أخذوه إلى قيافا ، وكان عظيم الأحبار في تلك السنة . وهناك كان المجمع الكبير كله بانتظار يسوع ، لأن قيافا كان قد اقنع اعضاءه أن من الواجب التضحية بانسان واحد من أجل خلاص الشعب كله .

وتبع بطرس الحراسَ من بعيد ، وما كان ليجرؤ على الدخول إلى الدار نفسها ، لولا أن يوحنا يعرف عظيم الأحبار جيداً ويدخل بحرية إلى بيته ، فتدخّل عند البوّابة كي تأذن لبطرس بالدخول . فقالت لبطرس حالما رأته :

« ألست واحداً من أتباع هذا الرجل ؟ » .

فأنكر بطرس ذلك دون تردد ، وجلس قرب النار بين الحجّاب والخدم ليستدفىء مثلهم .

واحضروا يسوع أمام عظيم الأحبار ، فسأله أسئلة عديدة تتعلق بمذهبه التعليمي وتلاميذه . فأجابه يسوع :

« لقد علّمت العالم علانية . علّمت في الهيكل والمجامع حيث يذهب

اليهود كلهم عادة . وليست لدي أية مبادىء خفية . فلماذا تسألني إذاً ؟ اسألْ الذين علّمتهم والذين سمعوني ، فيمكنهم جميعاً أن يقولوا لك ما تسأل عنه » .

وبدت هذه الاجابة وقحة في نظر أحد الحراس . فلطم يسوع وقال له :

« أهكذا تجيب عظيم الأحبار ؟ » . فقال يسوع بلطف :

« إذا كنت قد أخطأت في الاجابة ، فدُلّني على خطأي ، وإذا كنت قد أحسنت الاجابة فلماذا تضربني ؟ »(١١٨) .

ثم استدعي الكثير من الشهود ، ليؤدّوا شهادتهم ضد يسوع . ولكن الأحبار لم يستطيعوا استخدامها ، إمّا لأنها غير دقيقة ، وإمّا لأنها لا تتوافق . وأخيراً حضر بعض الأشخاص وأكدوا أنهم سمعوا يسوع يتكلم على الهيكل بوقاحة . ولكن هذه الشهادات لم تتوافق تماماً في تعابيرها .

ولم يجب يسوع عن كل هذا إلاّ بالصمت . وأخيراً فقد عظيم الأحبار صبره ، فاقترب من يسوع وقال :

« ألا تجيب بشيء على هذه الاتهامات ؟ استحلفك إذاً بالله الحيّ أن تقول لنا إذا كنت قديساً ، أو ابناً للإله ؟ » .

فأجاب يسوع : « نعم ، أنا كذلك . وهذا الرجل المحتقر الذي كرّس نفسه للألوهة والفضيلة ، سترونه يوماً مرتدياً البهاء ومرتفعاً فوق النجوم » .

فمزّق عظيم الأحبار ثيابه وصرخ :

(١١٨) حسب يوحنا ١٨ : ٢٤ يبدو أن هذا الأمر حصل في قصر حنانيا . ولكن إذا كان المجمع الكبير قد انعقد عند قيافا ، وإذا كان الاستجواب الحقيقي قد حصل هنا ، فإن المكان الذي أنكر فيه بطرس يسوع لا يكون نفسه . فلا يقال (ἀρχιερεύς) في الجمع إلاّ عند قيافا (ملاحظة لهيجل)

« لقد جدّف على الله ! فما حاجتنا إلى شهادات أخرى ؟ لقد سمعتموه يشهد على نفسه . فما رأيكم ؟ » .

فأبدوا رأيهم قائلين : « إنه يستحق الموت » .

وكان هذا الموقف بمثابة اشارة للحراس ، فراحوا يشتمون يسوع ويحقرونه ، إذْ أنه بقي بين أيديهم بعد ارفضاض المجمع الكبير لبضع ساعات قبل التئامه مجدداً في وقت مبكر من الغد .

وفي هذه الأثناء كان بطرس ما يزال جالساً قرب النار(١١٩) فعرفته امرأة أخرى من خدم عظيم الأحبار ، فقالت لمَنْ هناك :

« لا ريب أن هذا أيضاً من رفاق السجين ! » .

فنفى بطرس ذلك نفياً باتاً . لكن خادماً لعظيم الأحبار ، وهو قريب الذي جرحه بطرس قبل عدة ساعات ، قال :

« ألَمْ تكن قرب يسوع في البستان ؟ » واقتنع الآخرون بذلك لأن لهجته تدل على أنه جليلي .

وفي غمرة هذه الظروف التي تشهد كلها ضد بطرس ، نسي نفسه بسبب الارتباك ، وجعله الخوف يصرّح علناً أنه لا يفهم شيئاً مما يقولونه ، وأنه لا يعرف مطلقاً الانسان الذي يعتبرونه صديقه .

وحينئذٍ أخذ الديك يصيح معلناً أن النهار بدأ يتكشّف . واقتيد يسوع من ذلك المكان في الوقت الذي كان بطرس ينكره علناً . فالتفت يسوع نحوه ، وألقى عليه نظرة ، فدخلت إلى أعماقه ، واحس بدناءة تصرفه ، وشعر كم كان يسوع محقاً ، أثناء محادثته لهم مساءً ، في شكّه بأن الوفاء الذي تباهى به بطرس لن يصمد في الامتحان . فابتعد بسرعة وذرف دموعاً مرّة وهو نادم وخجل من نفسه .

(١١٩) مرقس ١٤ : ٦٦ وما يليها .

أمّا يهوذا الخائن ، فلمّا رأى أن الأمور أخذت مجرى بعيداً ، وأن يسوع سيُحكَم عليه بالموت ، ندم على فعلته . فأعاد المال (ثلاثين ديناراً) إلى الأحبار ، وقال :

« لقد أسأت التصرف بتسليمكم بريئاً » .

فأجابوه أن هذا كان عمله ، وأن فعلته لا تهمهم . فرمى يهوذا المال في صندوق الهيكل ثم شنق نفسه .

وتردّد الأحبار في اضافة المبلغ إلى أموال الهيكل ، لأنه ثمن دم ، فاشتروا به حقلاً ، وقرروا جعله مقبرة للغرباء .

ومضت الساعات الباقية من الليل ، فالتأم المجمع الكبير مجدداً . وحكم على يسوع بأنه يستحق الموت . ولكن لم يكن للمجمع الحق باقرار الحكم ولا بتنفيذه ، لذلك ذهبوا كلهم ومعهم يسوع إلى بيلاطس ، الحاكم الروماني لتلك المقاطعة ، حتى يسلموه يسوع ، فيتجنبون بذلك انفجار أيّ عصيان شعبي إذا بقي يسوع بين أيديهم[١٢٠] .

ولم يدخلوا القصر ، حتى لا يتنجسوا ، لأن ذلك اليوم كان من أيام العيد . فخرج بيلاطس إلى الرواق وسألهم :

« بأية جريمة تتهمون هذا الرجل ، حتى تطلبوا ادانته ؟ » .

فأجاب الأحبار : « لو لم يكن مجرماً لما اسلمناه إليك » .

فأجاب بيلاطس :

« إذاً إدَّعوا عليه أنتم ، وحاكموه بحسب شرائعكم » .

فأجابوا : « لسنا مخوّلين أن نقرّر أحكاماً بالموت » .

---

(١٢٠) وضع نول هذه الفقرة قبل الفقرتين السابقتين . ويبدو لي أن مكانها هو حيث وضعها روك ، أي في مكانها الحالي .

فلمّا سمع بيلاطس أن الأمر يتعلق بجريمة يمكن أن تؤدي إلى حكم بالموت ، لم يعد باستطاعته رفض محاكمة يسوع ، فاستعرض تهم المجمع ضده . وكان المجمع اليهودي يعلم جيداً أنه لن يتمكن من أخذ حكمٍ من بيلاطس باعدام يسوع ، إذا اتهموه بأنه قد صرّح أنه ابن الإله ، وهو أمرٌ يعدّه اليهود تجديفاً على الإله ، ويعتبره المجمع جريمة تستحق الموت ، فاتهموا يسوع بأنه يضلِّل الشعب ، ويجعله غير مبالٍ بدستور الدولة ، وهو ما يظهر من تحريضه على عدم دفع الجزية للامبراطور . واتهموه أيضاً بالادعاء أنه ملك .

وعاد بيلاطس إلى القصر بعد أن سمع هذه الاتهامات ، فدعى يسوع وسأله :

« أتدَّعي حقاً أنك ملك اليهود ؟ » .

فسأله يسوع بدوره :

« هل ساورتك الفكرة بأنني أدّعي مثل هذا الأمر من ذاتك ، أو أنك تسألني عنه لأن آخرين يشكونني به ؟ » .

فأجابه بيلاطس :

« وهل أنا يهودي ، حتى أنتظر من نفسي ملكاً على بلادكم ؟ إن شعبك والأحبار هم الذين يتهمونك . فماذا فعلت حتى دفعتهم إلى ذلك ؟ » .

فأجاب يسوع :

« إنهم يتهمونني بانتحال مملكة . ولكن هذه المملكة ليس لها المدلول الذي يُلصَق في العادة بهذه الفكرة . ولو كانت كذلك لكان لي رعايا وأتباع يحاربون من أجلي حتى لا أقع في أيدي اليهود » .

فأجاب بيلاطس :

« إذاً فأنت تدَّعي أنك ملك ، لأنك تتكلم على مملكة » .

فأجاب يسوع :

« إذا أردت أن تسميها كذلك ، فليكنْ . لقد آمنتُ أنني جئت إلى العالم بمهمة تعليم الحقيقة ، والاتيان لها بأنصار . ومَنْ يحب الحقيقة يستمع لصوتي » .

فظهر بيلاطس بمظهر انسان هذا العالم الذي يحكم بأفق ضيق على الأشياء الجدية تماماً ، فقال وهو يبتسم : « وما هي الحقيقة ؟ » .

لا شك أن بيلاطس قد اعتبر يسوع حالماً يكرِّس نفسه من أجل كلمة أو فكرة مجرَّدة ، وهي أمور غير مهمة بالنسبة إلى فكر بيلاطس ، فاعتبر أن الشأن كله مسألة تهم الدين اليهودي وحده ، ولا تتسبب بانتهاك القوانين المدنية ، ولا تشكل خطراً على أمن الدولة . فترك يسوع وخرج قائلاً لليهود أنه لم يتبيَّن أية جريمة في هذا الانسان .

فتابع هؤلاء اتهاماتهم قائلين أن يسوع يثير بتعليمه المتاعب في كل البلاد من الجليل حتى أورشليم .

ولفت انتباه بيلاطس قولُهم إن الجليل هو المكان الذي بدأ فيه يسوع تعليمه ، فاستعلم عمّا إذا كان يسوع جليلياً . فلمّا تأكد له ذلك ، بدا سعيداً بالتخلص من هذا العمل المزعج ، لأن يسوع بصفته جليلياً يتبع السلطة القضائية لهيرودوس أمير الجليل . فأرسله إليه ، وكان في أورشليم بمناسبة العيد .

وسُرَّ هيرودوس كثيراً لمرأى يسوع ، فقد كان يتمنى منذ زمن بعيد أن يراه ، لما يسمعه عنه . وكان يأمل أن يراه وهو ينجز أموراً خارقة .

فسأله مسائل كثيرة . وقام الأحبار ومرافقوهم يكررون اتهاماتهم أمامه . فلم يجب يسوع بشيء على كل ذلك . وبقي هادئاً أيضاً عندما

أوسعه هيرودوس وجلساؤه سخرية ، ولما ألبسوه أخيراً ثوباً يرمز إلى رتبة الامارة .

ولم يعرف هيرودوس ماذا يفعل به ، فقد بدا له أن يسوع موضوعٌ للسخرية أكثر من كونه مذنباً يجب أن يُعاقَب ، فأعاده إلى بيلاطس . وكان لهذه الالتفاتة من بيلاطس ، باحترام حق هيرودوس في السلطة القضائية على يسوع ، بصفته جليلياً ، تأثير على إعادة الصداقة بينهما ، وكانت قد انقطعت قبلاً .

ووجد بيلاطس نفسه مجدداً في حيرة . فجمع كبار الأحبار وأعضاء المجمع وأعلمهم أنهم قد اتهموا هذا الرجل أمامه بالتحريض على الشغب ، وأنه وهيرودوس لم يجدا فيه أي شيء يدل على استحقاقه عقوبة الموت ، ولذلك لا يمكنه أن يفعل به أكثر من أن يجلده ثم يطلقه حراً .

ولم يرضِ اليهود بهذه النتيجة ، وأصرّوا على اتخاذ قرار باعدامه . أمّا بيلاطس الذي أُعجب بصمت يسوع أثناء هذه المشادات كلها ، فلم يرض لنفسه أن يُستخدم أداةً لتعصب اليهود الديني ، بأن يضحي لهم بيسوع ، فوجد مخرجاً آخر ، وخاصة أن امرأته كانت قد أرسلت إليه رسولاً يطلب منه الاهتمام بيسوع . إذْ كانت العادة أن تطلق السلطة الرومانية في عيد الفصح سراح أحد السجناء اليهود . وكان ثمة يهودي آخر في السجن يُدعَى باراباس ، اتهمه اليهود باللصوصية والقتل .

وظن بيلاطس أن اليهود لن يهملوا ممارسة هذه العادة ، وأنهم سيطلبون الحرية ليسوع دون ذلك المجرم . فخيّرهم بين الاثنين ، أي بين باراباس وملك اليهود ، كما سمّى يسوع بسخرية .

فحرّض الأحبارُ الشعب الحاضر على طلب الافراج عن باراباس والموت ليسوع . ولمّا أعاد بيلاطس سؤاله عمّن قرروا أن يفرج عنه ، صرخوا : « باراباس ! » .

فصاح بيلاطس مستاءً : « وماذا أفعل إذاً بيسوع ؟ » .

فصرخوا : « اصلبْه » .

فسألهم بيلاطس مجدداً : « وما هو الشر الذي فعله ؟ » .

فصاحوا بقوة : « اصلبْه ، اصلبْه ! » .

وحينئذٍ أمر بيلاطس بجلد يسوع ، وضفر الجنود اكليلاً من الشوك ، ووضعوه على رأسه ، وألبسوه رداء من الأرجوان ، ووضعوا في يده قصبة بمثابة الصولجان[١٢١] ، وصاحوا وهم يضربونه : « السلام عليك يا ملك اليهود ! » .

وظن بيلاطس أن هيجانهم قد سكن حينئذٍ ، فقال لهم :

« اكرر لكم أنني لا أجد فيه أي ذنب » .

ثم أخرجه وهو مرتدٍ ذلك اللباس وقال : « انظروا إليه ، واملأوا أعينكم من هذا المنظر ! » .

لكن المنظر لم يلينّ قلوبهم . وطلبوا موته بضجة كبيرة .

فصاح بيلاطس وهو أكثر انزعاجاً : « خذوه إذاً واصلبوه أنتم ، فانني لم أجده مذنباً » .

فأجاب اليهود : « إنه يستحق الموت حسب شرائعنا ، لأنه يدَّعي أنه ابن للإله » .

وتصور بيلاطس أن الأمر يتعلق بابنٍ لله حسب التصور الروماني ، فساورته الشكوك أكثر فأكثر ، وسأل يسوع :

« من أين أنت بالحقيقة ؟ » .

---

(١٢١) (. . . وألبسوه رداء من الأرجوان ، ووضعوا في يده قصبة بمثابة الصولجان . . .) لا توجد في نص روك .

ولكن يسوع لم يجبه .

فقال بيلاطس : « أفلا تجيبني أنا أيضاً ؟ أتعرف أن حياتك وموتك وقف عليّ وحدي ؟ » .

فأجاب يسوع : « هذا صحيح إذا كان حياتي أو موتي موافقين لتصميم العناية الإلهية . ولكن هذا لا يقلل من خطأ الذين أسلموني » .

وأخذ بيلاطس يميل أكثر فأكثر إلى جانب يسوع ، وعزم على اطلاقه . فلمّا رأى اليهود ذلك ، لعبوا دور الرعايا المخلصين الذين لا يهتمون إلّا بمصلحة القيصر . إنه دور قاس بالنسبة إليهم ، ولكنه يسهل لهم الوصول إلى هدفهم . فصاحوا :

« إنْ أخليت سبيله ، فلست صديقاً لقيصر . فمَنْ يدّعي المُلك يكون خارجاً على ملكنا » .

حينئذٍ باشر بيلاطس المحاكمة رسمياً ، فأدنى يسوع وقال :

« هوذا ملككم ! أأصلب ملككم ؟ » .

فقالوا :«اصلبْه ، فنحن لا نعرف ملكاً سوى قيصر ! » .

فلما رأى بيلاطس أن الصخب واللغط أخذا يتزايدان ، خشي حصولَ متاعب ، وربما ثورة يستطيع اليهود اعطاءها مظهر التحرك للدفاع عن شرف القيصر ، وهو أمر خطير جداً بالنسبة إلى بيلاطس ، ولمّا رأى أن عناد اليهود لا يقهر ، أخذ وعاء ماء بارد وغسل يديه أمام الشعب ، وقال :

« إنني بريء من دم هذا البارّ ، وأنتم تتحملون مسؤوليته ! » .

فصرخ اليهود : « أجل ، فنحن وأولادنا نكفّر عن موته ! » .

وهكذا انتصر اليهود : فأطلق سراح باراباس وحكم على يسوع بالصلب (طريقة الرومانيين في الموت ، ولكنه مشين كالشنق في أيامنا) .

وبقي يسوع عرضةً لسخرية الجنود وفظاظتهم حتى اللحظة التي اقتادوه فيها إلى مكان التعذيب . وكانت العادة أن يحمل المحكوم خشبته . ولكن يسوع أعفي من ذلك . وأعطيت الخشبة لرجل يدعى سمعان كان موجوداً هناك ، فحملها .

وكان حشد الجماهير كبيراً . فلم يجرؤ أصدقاء يسوع على الاقتراب منه ، بل تبعوه وحضروا التنفيذ من بعيد وهم متفرقون . وكان بالقرب منه نسوة عرفنه فأخذن يبكين منتحبات على مصيره . وفيما يسوع سائر التفت إليهن وخاطبهن هكذا :

« يا بنات أورشليم لا تبكين عليَّ ، بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن . فستأتي أيام يُقال فيها طوبى للنساء العواقر ، وللاثداء التي لم تُرضع ، وللنساء اللواتي لم يلدن ! أترين ما حصل لي ! احكمن إذاً إلى أي مدى يمكن أن يصل شعب تحييه مثل هذه الروح ! » .

وصلب يسوع مع جانيين اثنين .

ووضع صليبه في الوسط . وفيما هم يعلِّقونه عليه (باثبات يديه بالمسامير ورجليه بالحبال وحدها على الأرجح)(١٢٢) صرخ : « يا أبتِ ، اغفرْ لهم ، لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون ! » .

واقتسم الجنود ملابسه فيما بينهم كما جرت العادة . ووضع بيلاطس لوحة على صليبه كتب عليها بالعبرية واليونانية واللاتينية : « هذا هو ملك اليهود » . فأغاظ ذلك الأحبارَ ، وقالوا إن بيلاطس يجب أن يكتب أن يسوع

(١٢٢) انظر (Paulus, Memorabilien, 1793, p. 36 - 64) مسألة تسمير أقدام المصلوبين (ملاحظة لهيجل) .

ولكن نص روك نقل ما بين القوسين بطريقة مختلفة : (باثبات يديه بالمسامير وقدميه بالحبال) . وملاحظة هيجل تختلف في هذا النص أيضاً : (ليس هذا سوى احتمال ؛ انظر Paulus, Memorabilien 2) .

قد ادّعى ذلك . ولكن بيلاطس الناقم عليهم بسبب هذه المسألة كلها ، فرح لمّا لاحظ أنهم يشعرون أن لوحته قد أهانتهم ؛ فلمّا طلبوا منه تغييرها أجابهم : « ما كتبته سيبقى » .

وفي ذلك الوقت كان يسوع معرضاً ، بالاضافة إلى الآلام الجسدية ، إلى السخرية الشامتة من الرعاع اليهود ، وهم من أفراد الطبقة العليا ومن عامة الشعب ، وكذلك إلى دعابات الجنود الرومانيين الفظة . ولم يمنع المصير المشترك أحد الشقيين المصلوبين مع يسوع من مزج سخرياته بالشتائم الساخرة للجماهير .

ولكن اللص الآخر ، ورغم جرائمه ، لم يفقد نهائياً شعوره الانساني وضميره ، فعنّف الأول على كونه قاسياً وفظاً ، حتى في هذه الظروف ، نحو انسان يعاني مثله حالة تعذيب واحدة .

وأضاف : « إن مصيرنا عادل . لأننا نلنا ما تستحقه أعمالنا . أمّا هذا فيتحمل المصير نفسه وهو بريء ! » . ثم قال ليسوع : « اذكرني متى أتيت في ملكوتك » .

فأجاب يسوع : « سنكون معاً في القريب ، ونسكن في مقام المغبوطين » .

وعلى قدم الصليب وقفت أم يسوع مع بعض صديقاتها بحزن عميق . ولم يكن هناك من أصدقاء يسوع الحميمين سوى يوحنا الذي وقف مع النسوة ليشاركهن ألمهُنَّ . وشاهدهم يسوع معاً ، فقال لأمه : « هذا ابنك بدلاً مني » . وقال ليوحنا : « اعتبرها أمك » . وهكذا استقبلها يوحنا في منزله واعتنى بها ، حسب رغبة صديقه المقبل على الموت .

وبعد بضع ساعات عاشها يسوع متألماً على الصليب ، صرخ : « إلهي ، إلهي ، لماذا تركتني ؟ » ثم صرخ أيضاً أنه عطشان ، وبعد أن

أعطي قليلاً من الخلّ الذي مُدَّ إليه بواسطة اسفنجة مبللة[١٢٣] ، قال أيضاً : « لقد تمّ » . وأخيراً صرخ بصوت مرتفع : « أبتِ ، في يديك استودع روحي » . ثم حنى رأسه وأسلم الروح .

واعجب القائد الروماني المشرف على التنفيذ بالهدوء والجلال اللذين مات بهما يسوع . أمّا اصدقاؤه فشاهدوا نهاية صديقهم الحميم عن بعد .

ولّما كان المصلوبون لا يموتون في العادة إلّا شيئاً فشيئاً ، ويبقون في بعض الأحيان عدة أيام احياءً معلقين على الخشبة ، وكان الغد يوم العيد الكبير عند اليهود ، طلب هؤلاء من بيلاطس أن تُكسَر سوق المصلوبين وأن ينزلهم من هناك حتى لا تبقى الأجساد على الخشبة إلى الغد . ففعلوا ذلك بالمجرمين ، لأنهما كانا لا يزالان حيين ، ووجدوا أن ذلك غير ضروري ليسوع ، فطعنوه بحربة في جنبه حيث خرج ماء (دم أبيض) ممزوجاً بالدم .

وكان يوسف الرامي ، أحد اعضاء مجمع أورشليم ، ولا يعرف عنه سوى أنه صديق ليسوع ، قد طلب إلى بيلاطس أن يعهد إليه بجثمان يسوع . فأجابه بيلاطس إلى طلبه . فذهب يوسف مع نيقوديموس ، وهو صديق آخر ليسوع ، فأحْدَرَ الميت وحنطه بالمرّ والعود ، ولفّه بالكفن (نسيج كتان) ووضعه في ضريح عائلته المنحوت في الصخر ، والكائن في بستانه القريب من مكان الصلب . وهكذا استطاع بسهولة انجاز كل هذه التجهيزات قبل ابتداء العيد : أي اليوم الذي لا يُسمَح فيه بدفن الموتى .

---

(١٢٣) في الهامش : «λεγων αφετε» - دعوه ولا تعذبوه حتى لا يموت للحال ، فنحرم من متعة رؤية ايليا وهو يأتي لمساعدته . مرقس ١٥ : ٣٦ (ملاحظة لهيجل) .

المحتويات

صدر في المكتبة الهيجلية

١ ـ محاضرات في فلسفة التاريخ (المجلد الأول) (العقل في التاريخ)		هيجل
٢ ـ المنهج الجدلي عند هيجل	د. إمام عبد الفتاح إمام	
٣ ـ المنطق وفلسفة الطبيعة		ولتر ستيس
٤ ـ فلسفة الروح		ولتر ستيس
٥ ـ أصول فلسفة الحق (المجلد الأول)		هيجل
٦ ـ موسوعة العلوم الفلسفية (المجلد الأول)		هيجل
٧ ـ محاضرات في فلسفة التاريخ (المجلد الثاني) (العالم الشرقي)		هيجل
٨ ـ جدل الفكر	د. إمام عبد الفتاح إمام	
٩ ـ جدل الطبيعة	د. إمام عبد الفتاح إمام	
١٠ ـ جدل الإنسان	د. إمام عبد الفتاح إمام	
١١ ـ حياة يسوع		هيجل
١٢ ـ نظرية الوجود عند هيجل	هربرت ماركيوز	